بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة مختصرة لابن أبي زيد القيرواني

❊ اسمه ونسبه وكنيته:

قال الذهبي: «هو الإمام العلامة الفقيه القدوة عالم أهل المغرب، أبو محمد عبد الله بن (أبي زيد) عبد الرحمن النفزي القيرواني المالكي».

❊ مولده:

ولد بالقيروان سنة ٣١٠هـ.

❊ نشأته:

نشأ منذ صغره علىٰ طلب العلم، وحاز رياسة الدنيا والدين، كما قال القاضي عياض، ورحل إليه من الأقطار، ونجب أصحابه، وكَثُرَ الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب المالكي، وملأ البلاد من تواليفه حتىٰ إنه كان يُعد مالكًا الصغير.

❊ عقيدته:

قال الذهبي: «كان -رحمه الله- علىٰ طريقة السلف في الأصول لا يدري

الكلام ولا يتأول، فنسأل الله التوفيق».

*** شيوخه:**

تتلمذ علىٰ جمٍّ غفير من العلماء والفقهاء، ونذكر بعضًا ممن أخذ عنه، أو سمع منهم علىٰ سبيل المثال لا علىٰ سبيل الحصر، فقد أخذ عن:

- محمد بن مسرور الحجام.
- محمد بن الفتح.
- الحسن بن نصر البسوسي.

وخلق كثير.

*** تلاميذه:**

لا شك أن من تخرج علىٰ الجمِّ الغفير من العلماء، وكانت لديه العقلية المتفتحة أن يتخرج علىٰ يديه الكمُّ الهائل من العلماء وطلبة العلم، فممن حظوا بشرف الدراسة علىٰ يديه:

- الفقيه عبد الرحيم بن العجوز.
- عبد الله بن غالب السبتي.
- عبد الله بن الوليد بن سعد الأنصاري.
- أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني.

وخلق كثير.

*** تصانيفه:**

ملأ -رحمه الله- البلاد من تواليفه فقد صنف:

- كتاب النوادر والزيادات في نحو المائة جزء.

- واختصر المدونة، وعلىٰ هذين الكتابين المعول في التفقه بالمغرب.

- كتاب الاقتداء بمذهب مالك.

- كتاب إعجاز القرآن.

- رسالته في الرد علىٰ القدرية.

- مقدمة رسالته في التوحيد التي هي ضمن كتابه: الرسالة في فقه مذهب الإمام مالك -رحمه الله- ، والتي تعتبر مقدمة في تصنيفه للفقه المالكي، وقد قام شيخنا -حفظه الله، ودفع عنه كل سوء ومكروه- بشرحها.

إلىٰ غير ذلك من التواليف العديدة، التي لا يمكن حصرها، وقيل: إنه وضع رسالته المشهورة، وله سبع عشرة سنة، وكان مع عظمته في العلم والعمل ذا بر وإيثار وإنفاق علىٰ الطلبة وإحسان.

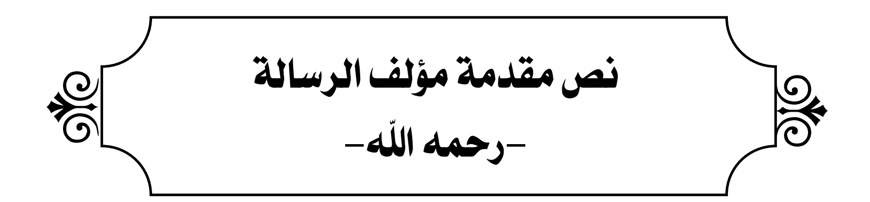
❊ وفاته:

قال الحبال: «توفي -رحمه الله- في النصف من شعبان سنة ٣٨٩هـ، ولما توفي رثاه بعض الشعراء».

❊ ترجمته:

انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٢١)، شذرات الذهب (٣/ ١٣١)، معجم المؤلفين (٦/ ٧٣)، الديباج المذهب (ص١٣٦-١٣٨).

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



نص مقدمة مؤلف الرسالة -رحمه الله-

قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني -رضي الله عنه وأرضاه-:

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلىٰ رفقه وما يسره له من رزقه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا، ونبهه بآثار صنعته، وأعذر إليه علىٰ ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه فهدىٰ من وفقه بفضله، وأضلَّ من خذله بعدله، ويسَّر المؤمنين لليسرىٰ، وشرح صدورهم للذكرىٰ، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علمهم، ووقفوا عند ما حد لهم، واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم.

❋ **أما بعد:**

أعاننا الله وإياك علىٰ رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه علىٰ مذهب الإمام مالك بن أنس -رحمه الله تعالىٰ- وطريقته، مع ما سهَّلَ سبيل ما

أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تُعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلىٰ قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما تُرجَىٰ لهم بركته وتُحْمَد لهم عاقبته، فأجبتك إلىٰ ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علَّم دين الله أو دعا إليه.

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجىٰ القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولىٰ ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلىٰ قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم علىٰ معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم؛ فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون -إن شاء الله- بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به، وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يعلَّمُوا ما فرض الله علىٰ العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأَنِست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله ﷻ علىٰ القلب عملاً من الاعتقادات وعلىٰ الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات.

وسأفصل لك ما شرطتُ لك ذكره بابًا بابًا ليقرب من فهم متعلميه -إن شاء الله تعالىٰ-، وإياه نستخير وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

باب: ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك: الإيمان بالقلب، والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والدَ له، ولا صاحبة له، ولا شريك له.

ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولايئوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه.

خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

علىٰ العرش استوىٰ، وعلىٰ الملك احتوىٰ، وله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه متصفًا، تعالىٰ أن تكون صفاته مخلوقة، وأسماؤه محدثة.

كلم موسىٰ بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه، وتجلىٰ للجبل فصار دكًّا من جلاله، وأن القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، عَلِمَ كل شيء قبل كونه فجرىٰ علىٰ قدره، لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]. يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكلٌّ ميسر بتيسيره إلىٰ ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد.

تعالىٰ الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنًىٰ، أو يكون أحد من خلقه خالقًا لشيء، وأنه ما ثَمَّ خالق إلا هو رب العباد ورب أعمالهم، والمقدِّر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيهﷺ فجعله آخر المرسلين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدىٰ به الصراط المستقيم.

وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون.

وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائرًا إلىٰ مشيئته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧]. ويخرج منها بشفاعة النبيﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته.

وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلىٰ أرضه بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته.

وأن الله -تبارك وتعالىٰ- يجيء يوم القيامة: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]. لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها، وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٨]. ويؤتون صحائفهم بأعمالهم: فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيرًا.

وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم.

والإيمان بحوض رسول الله ﷺ تَرده أمته، لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدَّل وغيَّر.

وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة، ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل.

ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة.

وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلىٰ يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلىٰ يوم الدين.

وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون؛ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وأن علىٰ العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه.

وأن خير القرون: القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي -رضي الله عنهم أجمعين-.

وألاَّ يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يُلتمس لهم أحسن المخارج، ويُظن بهم أحسن المذاهب.

والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا كثيرًا.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

نظم مقدمة الرسالة

للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي
المتوفىٰ سنة ١٢٨٥هـ - نقلاً من ديوانه (ص١٧)

الْحَمـدُ لله حَمـدًا لـيس منحـصرَا ... علـىٰ أياديـه مـا يَخفـىٰ ومـا ظهـرا

ثـم الـصلاة وتـسليمُ المهـيمن مـا ... هـبَّ الـصبَّا فـأدرَّ العـارضَ المطـرَا

علىٰ الـذي شـاد بنيانَ الْهُدىٰ فسما ... وسـاد كـلَّ الـوَرَىٰ فخـرًا ومـا افتخرا

نبيِّـــنا أحْمَـــدَ الْهَـــادي وعَتْـــرَته ... وصـحبه كـلِّ مـن آوىٰ ومَـن نـصرَا

وبعـدُ فـالعلمُ لَـم يظفـر بـه أحـدٌ ... إلاَّ سَـــمَا وبأســـباب العُـــلاَ ظفـــرَا

لاسـيما أصـل علـم الـدِّين إن بـه ... سـعادةَ العـبد والمنجَـىٰ إذا حـشُرَا

باب: ما تعتقدُه القلوب، وتنطق به الألسنُ من واجب أمور الديانات

وأوَّلُ الفـرض إيْمَـانُ الفـؤاد كـذا ... نطقُ اللِّسان بِما في الذِّكر قد سطرَا

أنَّ الإلـــه إلـــهٌ واحـــدٌ صـــمد ... فـــلا إلـــه ســـوىٰ مـــن للأنـــام بـــرَا

ربُّ السموات والأرضين ليس لنا ... ربٌّ ســواه تعالَــىٰ مــن لــنا فطــرَا

وأنـــه مُـــوجِدُ الأشـــياء أجمعهـــا ... بـــلا شـــريك ولا عـــون ولا وُزَرَا

وهـو المنـزَّه عـن ولـد وصـاحبة ... ووالـــد وعـــن الأشـــباه والنُّظَـــرَا

لا يبلغن كُنْهُ وصف الله واصفُه ... ولا يُحيط به علمًا من افتكَرَا

وأنَّه أوَّل باقٍ فليس له ... بدءٌ ولا منتهىٰ سبحان من قدرَا

حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلام له ... فردٌ سميعٌ بصيرٌ ما أراد جَرَا

وأنَّ كرسيه والعرش قد وسعا ... كلَّ السموات والأرضين إذ كبرَا

وَلَم يزل فوق ذاك العرش خالقُنا ... بذاته فاسأل الوحيين والفِطَرَا

إنَّ العلوَّ به الأخبارُ قد وَرَدَتْ ... عن الرَّسول فتابع مَن رَوىٰ وقرَا

فالله حق علىٰ الملك احتوىٰ وعلىٰ ... العرش استوىٰ وعن التكييف كن حَذِرَا

والله بالعلم في كلِّ الأماكن لا ... يخفاه شيءٌ سميعٌ شاهدٌ ويرَىٰ

وأنَّ أوصافه ليست بِمحدثة ... كذاك أسماؤه الحسنىٰ لمن ذكرَا

وأن تنزيله القرآن أجمعَه ... كلامُه غيرُ خلق أعجز البشرَا

وحيٌ تكلَّم مولانا القديمُ به ... ولَم يزل من صفات الله معتبرَا

يتلَىٰ ويُحمل حفظًا في الصدور كما ... بالْخَطِّ يثبته في الصُّحف من زبرَا

وأن موسىٰ كليمُ الله كلَّمه ... إلَهُه فوق ذاك الطور إذ حضرَا

فالله أسمعه من غير واسطة ... من وصفه كلمات تَحتوي عبرَا

حتىٰ رام أن يَحظىٰ برؤيته في مَحبته ... قال الكليم: إلَهي أسأل النظَرَا

إليك قال له الرحمن موعظة ... أنَّىٰ ترانِي ونوري يدهشُ البصرا

فانظر إلَىٰ الطور إن يثبت مكانته ... إذا رأىٰ بعض أنواري فسوف ترىٰ

حتىٰ إذا ما تَجلَّىٰ ذو الْجَلال له ... تصدَّع الطورُ من خوفٍ وما اصطبرَا

فصل في الإيمان بالقدر خيره وشرِّه

وبالقـضاء وبالأقـدار أجمعهـا إيْمَانُـنا واجـبٌ شـرعًا كمـا ذكـرَا

فكـلُّ شـيء قـضاه الله فـي أزَلٍ طرًّا وفي لوحه الْمَحفوظ قد سُطِرَا

وكـلُّ مـا كـان مـن همٍّ ومـن فـرح ومـن ضـلالٍ ومـن شكرانٍ من شكرَا

فإنـه مـن قـضاء الله قـدَّره فـلا تكـن أنـت مِمَّـن ينكـر القـدرَا

والله خالـقُ أفعـال العبـاد ومـا يَجـري علـيهم فعـن أمـر الإلـه جـرَا

ففـي يديـه مقاديـر الأمـور وعـن قـضائه كـلُّ شـيء في الـورىٰ صَدَرَا

فمـن هـدىٰ فبمحض الفضل وفَّقه ومـن أضـلَّ بعـدل منـه قـد كفـرَا

فليس فـي مُلكه شيءٌ يكون سوىٰ مـا شـاءه الله نفعًـا كـان أو ضـررَا

فصلٌ في عذاب القبر وفتنته

ولَـم تَمُـت قطُّ مـن نفس ومـا قُتلت مـن قبـل إكمالهـا الـرِّزق الـذي قُدرَا

وكـلُّ روح رسـولُ المـوت يقبضُها بـإذن مـولاه إذ تـستكمل العُمُـرَا

وكـلُّ مـن مـات مـسئولٌ ومفتـتنٌ مـن حـين يوضـعُ مقـبورًا ليختبـرَا

وأن أرواحَ أصـحاب الـسعادة فـي جـنَّات عـدن كطيـر يعلـق الـشجرَا

لكـنما الـشهدا أحـيا وأنفـسهم فـي جـوف طير حسان تعجب النَّظرَا

وأنهـا فـي جـنان الخلـد سـارحة مـن كـلِّ مـا تـشتهي تجنِي بها الثمرَا

وأن أرواح مـن يـشقىٰ معذبـة حتـىٰ تكـون مـع الجثمان فـي سقرَا

فصل: في البعث بعد الموت والجزاء

وأن نفخـة إسـرافيل ثانيـة فـي الـصُّور حقٌّ فيحيا كـلُّ من قُبِرَا

كما بدا خلقهم ربِّي يعيدهم ... سبحان من أنشأ الأرواح والصُّورَا

حتىٰ إذا ما دعا للجمع صارخهُ ... وكلُّ ميت من الأموات قد نشرَا

قال الإله: قفوهم للسؤال لكي ... يقتصَّ مظلومُهم مِمَّن له قهرَا

فيوقفون ألوفًا من سنينهم ... والشمسُ دانيةٌ والرَّشح قد كَثُرَا

وجاء ربُّك والأملاكُ قاطبة ... لَهمُ صفوفٌ أحاطت بالورىٰ زُمَرَا

وجيء يومئذٍ بالنار تسحبُها ... خُزَّانها فأهالت كل مَن نظَرَا

لَهَا زفيرٌ شديدٌ مِن تَغَيُّظِها ... علىٰ العصاة وترمي نَحوهم شررَا

ويرسل الله صحفَ الخلق حاوية ... أعمالَهم كلَّ شيء جلَّ أو صَغَرَا

فمن تلقَّته باليمنىٰ صحيفتُه ... فهو السَّعيد الذي بالفوز قد ظفرَا

ومن يكن باليد اليسرىٰ تناولُها ... دعا ثبورًا وللنيران قد حُشرَا

ووزنُ أعمالهم حق فإن ثقلت ... بالْخَير فاز وإن خفَّت فقد خَسِرَا

وأنَّ بالمثل تُجزىٰ السيئات كما ... يكون في الْحَسنات الضِّعف قد وفرَا

وكلُّ ذنب سوىٰ الإشراك يغفره ... ربِّي لِمَن شا وليس الشركُ مغتفرَا

وجنة الْخُلد لا تفنىٰ وساكنُها ... مُخلدٌ ليس يَخشىٰ الموتَ والكبرَا

أعدَّها الله دارًا للخلود لِمَن ... يَخشىٰ الإله وللنعماء قد شكرَا

وينظرون إلَىٰ وجه الإله بها ... كما يرىٰ الناس شمس الظهر والقمرَا

كذلك النار لا تفنىٰ وساكنها ... أعدَّها الله مولانا لِمَن كفرَا

ولا يخلد فيها من يوحده ... ولو بسفك دم المعصوم قد فَجَرا

وكم ينجي إلَهي بالشفاعة من … خير البرية من عاصٍ بها سجرَا

فصل: في الإيمان بالحوض

وأن للمصطفىٰ حوضًا مسافته … ما بين صنعا وبصرىٰ هكذا ذكرَا

أحلىٰ من العسل الصافي مذاقته … وأن كيزانه مثل النجوم تُرىٰ

ولَم يَرِدْه سوىٰ أتباع سنته … سيماهم: أن يرىٰ التحجيل والغررَا

وكم يُنحَّي ويُنفىٰ كل مبتدع … عن ورده ورجال أحدثوا الغيرَا

وأن جسرًا علىٰ النيران يعبره … بسرعة مَن لمنهاج الهدىٰ عبرَا

وأن إيْمَاننا شرعًا حقيقته … قصد وقول وفعل للذي أمرَا

وأن معصية الرَّحْمَن تنقصه … كما يزيد بطاعات الذي شكرَا

وأن طاعة أولي الأمر واجبة … من الهداة نجوم العلم والأُمَرَا

إلا إذا أمروا يومًا بِمعصية … من المعاصي فيلغىٰ أمرهم هدرَا

وأن أفضل قرن لَلَّذين رأوا … نبينا وبهم دين الْهُدىٰ نُصرَا

أعنِي الصحابة رهبان بليلهم … وفي النهار لدىٰ الهيجا ليوث شرىٰ

وخيرهم من ولي منهم خلافته … والسبق في الفضل للصديق مع عمرَا

والتابعون بإحسان لَهُم وكذا … أتباع أتباعهم مِمَّن قفىٰ الأثرَا

وواجب ذكر كل من صحابته … بالْخَير والكفُّ عما بينهم شجرَا

فلا تَخض في حروب بينهم وقعت … عن اجتهاد وكن إن خضت معتذرَا

والاقتداء بهم في الدين مفترض … فهم لنا قدوة هم مقتفو الأثرَا

وترك ما أحدث الضُّلاَّل فيه فكم … ضَلاَلَةٍ تُبِعَت والدين قد هُجِرَا

إن الْهُدىٰ ما هدىٰ الْهَادي إليه وما	بـه الكـتاب كـتاب الله قـد أمـرَا
فلا مراء وما في الدين من جدل	وهـل يُجادل إلا كـل مـن كفـرَا
فهاك في مذهب الأسلاف قافية	نظمًا بـديعًا وجيـز اللفـظ مُختـصرَا
يَحوي مهمات باب في العقيدة من	رسالة ابـن أبـي زيـد الـذي اشـتهرَا
والْحَمـد لله مـولانا ونـسأله	غفـران مـا قَـلَّ مـن ذنـب ومـا كثـرَا
ثـم الـصلاة علىٰ مـن عـمَّ بعثـته	فأنـذر الثقلـين الْجِـنَّ والبـشرَا
وديـنه نـسخ الأديـان أجمعهـا	ولـيس ينـسخ مـا دام الـصفا وحـرَا
محمـد خيـر كـل العالَمـين بـه	خـتم النبيـين والرسـل الكـرام جـرَا
ولـيس مـن بعـده يوحىٰ إلَىٰ أحـد	ومـن أجـاز فحـل قـتله هـدرَا
والآل والـصحب ما ناحت علىٰ فَنن	وَرْقًـا ومـا غَـرَّدَت قمـرية سـحرَا

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

شرح مقدمة مؤلف الرسالة

قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالىٰ-:
«الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوره في الأرحام بحكمته».

*** الشرح:**

لقد امتن الله علىٰ الإنسان بخلقه له، وتعليمه إياه، فقال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

وقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٣١].

فدلت هذه الآيات علىٰ عناية الله بهذا الإنسان، ولطفه به، ورحمته له؛ حيث ابتدأ خلقه في الرحم وصوَّره علىٰ أحسن صورة، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:٦].

وقال سبحانه: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٤-٦].

ففي هذه الآيات إخبار من الله ﷻ بتصويره للكائن الإنساني، وأنه خلقه في أحسن صورة، وجعله في أفضل هيئة.

* **قوله: «وأبرزه إلىٰ رفقه»**.

* **الشرح:**

يعني: أن الإنسان يُخلق ضعيفًا، فجُبل أهله علىٰ الرحمة به، والرفق به.

* **ثم قال: «وما يسره له من رزقه»**.

* **الشرح:**

فهو يرزقه باللبن من حلمة الثدي، وبعد أن يشتد ويخرج له الأسنان أعطاه رزقًا آخر يليق بحاله، وهو الطعام الذي يعيش عليه أمثاله.

* **ثم قال: «وعلمه ما لم يكن يعلم»**.

* **الشرح:** وقد أشرنا فيما سبق علىٰ الآيات الدالة علىٰ ذلك، ومن ذلك أيضًا قوله -جل وعلا-: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥].

* **ثم قال: «وكان فضل الله عليه عظيمًا»**.

* **الشرح:**

حيث تفضَّل عليه بالسمع، والبصر، واللسان الناطق، والعقل المفكر، والجوارح التي يتحرك بها؛ فيمشي، ويبطش، ويعمل، ويصنع.

* **ثم قال: «ونبهه بآثار صنعته»**.

* **الشرح:**

أي: نبهه بذلك علىٰ حكمة ربه وقدرته علىٰ أنه خلقه لعبادته، قال ﷻ: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧].

*** ثم قال: «وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه، فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله».**

*** الشرح:**

ففي هذه الجملة بيَّن المؤلف -رحمه الله- بأن الله عَزَّ وَجَلَّ أرسل رسله من بني آدم إليهم فدعاهم إلى توحيده، وإفراده بالعبادة، ونبههم على أن العبادة هي الحكمة في أصل الإيجاد، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

ثم بيَّن -رحمه الله- أن الناس بعد الرسالات انقسموا إلى قسمين: فريق تابعوا الرسل، وآمنوا بما جاءوهم به، فكانوا مهتدين، وفريق كذَّبوا وأبوا فكانوا مخذولين ضالين، فهو قد هدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].

*** ثم قال: «وَيَسَّرَ المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين».**

*** الشرح:**

بيَّن علىٰ التفصيل ما يلزم في الإيمان من اتفاق القلوب والألسنة والجوارح علىٰ مقتضاه فالقلب يعتقد ويؤمن ويصدق، واللسان ينطق موافقة للقلب علىٰ مقتضىٰ ما صدَّق به، والجوارح تعمل علىٰ مقتضىٰ ما أمرت به من أفعالٍ وتُروكٍ.

* **ثم قال: «وتعلموا ما علَّمهم»**.

* **الشرح:**

أي: ما علَّمهم من شرائع الإيمان، تعلموا ذلك، ووقفوا عند ما حد لهم -أي: من الصفات-، أي من صفات الله ﷻ العليا، وأسمائه الحسنىٰ، فوقفوا عند ما بيَّن لهم، وكتم عنهم الكيفية، فآمنوا بما أخبرهم به، وتركوا ما سكت عنه، ولم يتجاوزوه كما قال مالك -رحمه الله- لمن قال له: بأن الله قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩]. كيف استوىٰ؟

فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[(١)].

فدلَّ ذلك علىٰ أن المؤمنين آمنوا بما بينه لهم، وتوقفوا عند ما حد لهم ولم يتجاوزوا ذلك.

* **ثم قال: «واستغنوا بما أحل لهم عمَّا حرم عليهم»**.

* **الشرح:**

فدلَّ علىٰ عبوديتهم لله ﷻ حيث آمنوا بما أخبر به، وتعلموا ما أمرهم بتعلمه، ووقفوا عند ما حد لهم، وأخذوا ما أحل لهم، وامتنعوا عما حرم عليهم، فكانوا عباد الله حقًّا.

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد علىٰ الجهمية (ص٣٣)، وقال الذهبي في العلو (١٤١): هذا ثابت عن مالك.

قال ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤] الآيات...

هذا هو شرح هذه المقدمة، أما بعد هذا فقد ذكر -رحمه الله- الدافع الذي حمله علىٰ كتابة هذه الجملة المختصرة فقال: «**أما بعد: أعاننا الله وإياك علىٰ رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه**».

والودائع تفسر بالأمانات التي اؤتمن عليها الإنسان في خلوته وجلوته من أداء العبادة، والتطهر حق الطهارة، وحفظ الحواس والجوارح عما حرم الله.

وفي الحديث: «**استحيوا من الله حق الحياء**. قالوا: إنا نستحي من الله يا نبي الله، والحمد لله. قال: **ليس ذلك؛ ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، وأن تحفظ البطن وما حوىٰ، وأن تذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ...**». الحديث[1].

* **ثم قال: «فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه علىٰ مذهب الإمام مالك بن أنس -رحمه الله تعالىٰ- وطريقته».**

* **الشرح:**

هذا قول المؤلف -رحمه الله-، ونحن نقول: إن التفقه علىٰ ما صح عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب (٢/ ٧٥) (ح٢٤٥٨)، والحاكم (٤/ ٣٢٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٣٥).

علىٰ مذهب أي إمام كان، فمن وافقه الدليل منهم فقوله المقدَّم، ومن خالف الدليل بشيء من التأويل، أو عدم صحة الدليل عند المستدل، أو ما أشبه ذلك من الأمور التي تحمل ذلك الإمام علىٰ عدم القول بالدليل في مسألة ما؛ فنحن نعذره ونقول: إنه لم يترك الدليل إلا لأنه لم يبلغه، أو أنه أوَّله، أو تعارض مع غيره عنده، ونحن نهيب بالأئمة ونكرمهم عن أن يكونوا قد تركوا الدليل عامدين بدون عذر، ولا عيب علىٰ من ترك قول ذلك الإمام الذي خالف الدليل، لا عيب عليه في تلك المخالفة؛ لأن كلاًّ يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ.

وكلنا نؤمن بأننا جميعًا إنما كلفنا بمتابعة الرسول ﷺ لا بمتابعة غيره، وأن من عظم شأنه من الأئمة وكثر أتباعه منهم إنما حصل ذلك لأن التابعين له ظنوا أنه من المتبعين لرسول الله ﷺ في كل شيء إلا ما خفي عليه من غير قصد ولا تهاون، وقد تبين من هذا أن الواجب علينا جميعًا هو اتباع الدليل، سواء كان الدليل مع مالك، أو الشافعي، أو أحمد بن حنبل، أو أبي حنيفة أو غيرهم.

*** ثم قال: «مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين لما رغبتَ فيه من تعليم ذلك للولدان كما تُعلمهم حروف القرآن».**

*** الشرح:**

وأقول: يقصد المؤلف من هذا: أن الواجب أن نأخذ من تفسير الراسخين في العلم والمتفقهين في الدين ما يناسب تلك المسألة مما يجعل الإنسان عارفًا لتلك المسألة، وما قيل فيها، غير أن الواجب عليه أن يتبع ما ترجح عنده إن كان مؤهلاً، وأن يعلمه لمن وكل إليه تعليمهم من الأطفال والصغار أو الشباب الذين

يريدون معرفة الحق ليتبعوه.

*** ثم قال: «ليسبق إلىٰ قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجىٰ لهم بركته وتُحْمَد لهم عاقبته».**

*** الشرح:**

يعني: أن الأطفال الذين يُعلمون العقيدة الصحيحة من الصغر أن تلك العقيدة الصحيحة تحتل قلوبهم فتثبت فيها وتمنع ما يُعرض عليها من المحدثات التي تَرُدُّها الشرائع، وقد أشار حديث حذيفة بن اليمان ﵁ إلىٰ ذلك؛ فقال فيما رواه عن النبي ﷺ: «**تعرض الفتن علىٰ القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، -أو: كالحصير عودًا عودًا- فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء**»(١).

وقد أشار المؤلف إلىٰ أن خير القلوب أوعاها للخير، فقال بعد قوله: «**فأجبتك إلىٰ ذلك لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علَّم دين الله، أو دعا إليه**».

*** ثم قال: «واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجىٰ القلوب للخير ما لـم يسبق الشر إليه».**

*** الشرح:**

يعني: أن القلوب التي يسبقُ إليها الشر تتأثر به غالبًا، وأن القلوب التي يأتي إليها الخير، وهي خالية صافية فهي التي يرجىٰ تقبلها لذلك الخير والعمل به.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (١/ ١٢٨) ح (٢٣١)(١٤٤).

* ثم قال: «وأولىٰ ما عني به الناصحون، ورغب فيه أجره الراغبون إيصال الخير إلىٰ قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم علىٰ تعاليم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها».

* الشرح:

قوله: «ليراضوا عليها». من الرياضة، وهي التمرين علىٰ الشيء.

* **«وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه قد روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر».**

* الشرح:

وأقول: هذا كلام حق -إن شاء الله- إذا قصد به تعليم الصغار العقيدة الصحيحة حتىٰ ينجو في مستقبلهم من قبول المحدثات والبدع والضلالات.

* **قال: «وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون -إن شاء الله- من حفظه ويشربون من علمه ويسعدون من اعتقاده والعمل به، وقد جاء -أي: عن النبي ﷺ- أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر سنين، ويفرق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يُعلَّموا ما فرض الله علىٰ العباد من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأَنِست بما يعملون به من ذلك جوارحهم، وقد فرض الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ القلب عملاً من الاعتقادات، وعلىٰ الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات، وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره بابًا بابًا ليقرب من فهم متعلميه -إن شاء الله تعالىٰ-، وإياه نستخير وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا».

* قال الماتن: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني -رحمه الله-:

باب: ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة
من واجب أمور الديانات

«من ذلك الإيمان بالقلب، والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون بآياته، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم».

*** الشرح:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

*** قوله: «باب: ما تنطق به الألسنة، وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات».**

*** قال: «من ذلك الإيمان بالقلب».**

*** قلت:** ومعنىٰ الإيمان بالقلب، أي: التصديق بوحدانية الله ﷻ مؤكدًا ذلك بالنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، وهذا معنىٰ لا إله إلا الله.

فكلمة «لا إله» مركبة من جملتين: جملة النفي، وجملة الإثبات.

فجملة النفي المتقدمة، وهي مؤلفة من «لا» النافية ومنفيِّها، فـ: «لا» كلمة نفي و«إله»: نكرة تشمل جميع الآلهة إذ إن النكرة إذا كانت في سياق النفي فهي

تعم، ومن أجل ذلك اقتضىٰ هذا النفي أنه نفي لجميع الآلهة أي نفي لجميع المعبودات، ثم بعد ذلك جاء الإثبات بـ«إلا» الاستثنائية، لا إله إلا الله، وهذا مقتضىٰ قوله أن الله إله واحد لا إله غيره، ومصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

*** أما قوله: «لا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له».**

فهذا نفي لكونه متولدًا من غيره، أو غيره متولد منه، ونفي للأشباه والنظراء والمعينين والوزراء، ونفي للصاحبة والشريك، وهذا النفي تضمنته سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في الحوائج: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص]. ثم يأتي بعد ذلك الجملة الأخرىٰ النافية لابتداء وجوده، ولانتهاء ديموميته، وانقضاء ربوبيته، فقال -رحمه الله-:

«ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء».

*** الشرح:**

وهذا المعنىٰ تثبته الآية الثالثة من سورة الحديد، حيث يقول فيها ﷻ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

وفي الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ: «**اللهم أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر الذي ليس فوقك شيء،**

وأنت الباطن الذي ليس دونك شيء»[1].

*** قوله: «ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم».**

*** الشرح:**

يقرر المؤلف -رحمه الله- عجز المخلوقين عن بلوغ وصفه، وعجزهم عن الإحاطة بأمره، وأنهم مأمورون بالتفكر في آياته؛ أما ذاته فلا تفترضها الأذهان، ولا تبلغها المقاييس؛ فالقلوب عاجزة أن تتصور صفته، والأذهان كالَّة أن تحيط بمعرفته، فلا يقدر العباد أن يعلموا من صفاته وأسمائه ونعوت ذاته إلا ما علمهم إياه، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ معرفته هو الغاية التي ينبغي أن ينتهي إليها كل مخلوق، ولقد قرر ذلك بقوله: «**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**».

*** قوله: «العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه».**

*** الشرح:**

تضمن قوله -رحمه الله- أن الله موصوف بصفات الكمال فكل وصف وَصف الله به نفسه فهو في غاية الكمال، فإذا وصفنا الله بأنه عالم كما وصف ذلك في قوله سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم (٤/ ٢٠٨٤ ح٦١، ٢٧١٣)

رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

فإن معنىٰ ذلك: أن الله له الوصف الأعلىٰ في العلم والاطلاع، كذلك له الوصف الأعلىٰ في الخبرة حينما نقول: الخبير فهو خبير ببواطن الأمور وظواهرها.

المدبر: موصوف بأنه يدبر هذا الكون، ويصرفه ويجريه علىٰ ما قد قدره له ﷻ.

السميع البصير: هاتان الصفتان وصفَ الله بهما نفسه ووصفه بهما رسوله ﷺ، فإذا وصفناه بالسميع فإن معنىٰ ذلك أنه سميع لكل مسموع حتىٰ ما يخفىٰ علىٰ الناس يسمعه، وما تخفىٰ رؤيته علىٰ الناس يبصره، فعندما نصف الله ﷻ بأنه السميع البصير فإن هذا الوصف يقع علىٰ أكمل صفة فيه وأعلاها والإنسان موصوف بأنه سميع بصير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]. فإذا اتفقت صفة الله وصفة العبد في الأسماء فهل يلزم من ذلك اتفاقهما في الحقائق؟

الجواب: لا.

تقول عائشة ﵂: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كانت خولة بنت ثعلبة تجادل النبي ﷺ في زوجها في ناحية البيت فيخفىٰ عليَّ بعض كلامها فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]»[1].

فسمعُ الإنسان يحجبه البعد، وتحجبه الحجب، وسمع الله لا يحجبه شيء،

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التوحيد، باب: وكان الله سميعًا بصيرًا (٨/ ١٦٧)، والنسائي (٣٤٩٠)، وأحمد (٦/ ٤٦) وإسناده صحيح.

وكذلك بصره ﷻ يرىٰ ما في تضاعيف الأرض، وما في أجواف البحار، يرىٰ كل شيء فنحن إذا وصفنا الله بأنه سميع بصير فإن له أكمل وصف في ذلك وأعلاه -جل شأنه وتقدست أسمائه-.

العلي: علو المكانة، وعلو المكان، وعلو القدر؛ فهو عال علىٰ عرشه بذاته، وهو مستعلٍ علىٰ كل شيء من خلقه بقدرته، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام:٦٥].

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦١].

وقوله: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام:١٩].

* **قوله: «وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه»**.

* **الشرح**:

بمعنىٰ أنه مطلع علىٰ كل مكان لا يخلو من علمه مكان.

* **ثم قال: «خلق الإنسان ويَعلمُ ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»**.

* **الشرح**:

في هذه الفقرة بيان شمول علمه ودقته، بحيث لا تغيب عنه ورقة تسقط من شجرتها إلا ويعلم الشجرة أين مكانها من الأرض، ويعلم الورقة أين مكانها من الشجرة، وما من حبة تلقىٰ في الأرض إلا ويعلم أين وقعت، كل ذلك معلوم عنده ﷻ، لهذا فإن الواجب علىٰ العبد أن يؤمن بهذا كله، ويعتقد صحته، ويعتقد

كمال علم ربه ﷻ.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]. بل نؤمن أن كل ما يقع في الكون فهو مدون في أم الكتاب لا يشذ عن علمه شيء.

❋ **قوله: «علىٰ العرش استوىٰ، وعلىٰ الملك احتوىٰ».**

❋ **الشرح:**

علىٰ العرش استوىٰ، لا شك في ذلك، كما أخبر بذلك عن نفسه في سبعة مواضع من القرآن، وأهل العلم من سلف هذه الأمة يقولون: استوىٰ استواءً يليق بجلاله ﷻ، فنحن نؤمن بذلك، ونكِل كيفية الاستواء إلىٰ الله ﷻ .

وقد قيل لمالك -رحمه الله-: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. كيف استوىٰ؟

فأطرق مالك -رحمه الله- وتعجب من هذا السؤال العجيب، وعلاه العرق، ثم رفع رأسه، وقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأنت رجل سوء؛ أخرجوه»[1].

❋ **أما قوله: «وعلىٰ الملك احتوىٰ».**

❋ **الشرح:**

فهذه الجملة يُلاحظ علىٰ المؤلف فيها، فينتقد عليه هذا التعبير؛ إذ إن قوله: «**وعلىٰ الملك احتوىٰ**». كأنه يشعر بمنازع لله فيه، وليس كذلك، والذي نظنه أن ذلك جرىٰ علىٰ لسانه من باب التجنيس، وإلا فمن هو المنازع لله حتىٰ يكون الله

(١) مر تخريجه (ص٢٣).

قد احتوىٰ علىٰ الملك بعد المنازعة.

فالله ﷻ لا منازع له هو الخالق لهذا الكون، والمنشئ له، والحافظ له بمن فيه قال -جل من قائل-: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر:٤١].

وقال -جل من قائل-: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحج:٦٥].

وقال -جل شأنه-: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقال في موضع آخر: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء:٤٢-٤٤].

والمهم أن قوله: «**وعلىٰ الملك احتوىٰ**» كان ينبغي ألا تقال؛ لأنها تشعر بضد احتوىٰ الله علىٰ الملك بعده، ولا ينبغي أن نقر مثل هذا، والله أعلم.

*** قوله: «وله الأسماء الحسنىٰ».**

*** الشرح:**

هذا قيد الأسماء بأن الله ﷻ يُسمىٰ بأسمائه الحسنىٰ، كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء:١١٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٠]. وهذا يدلنا علىٰ أنا لا نسمي الله ﷻ إلا بأسمائه الحسنىٰ التي تتضمن الكمال المطلق له -جل وعلا-

وعلىٰ هذا فإنه لا يجوز أن نسمي الله ﷻ بأسماء لا تتضمن ذلك، فإذا كان الاسم بانفراده يُفهَم منه نقصٌ، لـم يجز أن نسمِّيه به علىٰ انفراده، فهناك أسماء تُذكر علىٰ سبيل المقابلة، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل: ٥٠-٥١].

وقوله: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقوله: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢].

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق:١٥-١٦].

فهذه الأسماء والصفات لا يساق منها اسم بانفراده؛ لأنه يوهم النقص، وإنما ذُكرت علىٰ سبيل المقابلة؛ أي: أن الله يقابل مكرهم وخداعهم وكيدهم بمثله -فلا يجوز أن نصف الله بأنه ماكر، أو خادع، أو كائد؛ لأن هذا الاسم، أو تلك الأسماء توهم نقصًا، وكذلك ما كان لا يتضمن كمالاً فهو كذلك أيضًا كقوله -جل وعلا-: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ [الأنعام:١٩].

فـ«شيء» هنا نكرة دخل فيها الله ذو الجلال والإكرام وغيره، فلا يجوز أن نسميه بأنه شيء؛ لأن ذلك لا يتضمن مدحًا.

وكذلك حديث: «**لا شخص أغير من الله**»[1]. فلا نسميه شخصًا، لأن ذلك لا يتضمن مدحًا، وعلىٰ هذا فإن الواجب علينا أن نسمي الله ﷻ بالأسماء التي تتضمن المدح؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب: لا شخص أغير من الله (ح٧٤١٦).

* **قوله: «والصفات العلا».**

* **الشرح:**

الصفات الواردة في القرآن والسنة التي ينبغي أن نصف الله بها معتقدين لكمالها، وعلوها، فإذا اتفقت مع بعض صفات المخلوقين، فنحن نؤمن أن صفات الله ﷻ متضمنة العلو والكمال في تلك الصفات، فإذا وصفنا الله بأنه حي، ووصفنا المخلوق بأنه حي، فيجب أن نعتقد الفرق بين حياة الخالق والمخلوق.

فحياة الخالق كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، بخلاف حياة المخلوق، فكل مخلوق حياته محاطة بالعدم السابق، والفناء اللاحق، وهي أيضًا مفتقرة إلىٰ من أوجدها، ويقوم بوجودها، فمثلاً الإنسان حياته متوقفة علىٰ ما جعلها الله ﷻ متوقفة عليه فهي لا تبقىٰ إلا بوجود ما قدر الله بقاءها عليه.

فالإنسان والحيوان حياتهما متوقفة علىٰ ثلاثة أمور هي: الأكل، والشرب، والراحة -الذي هو النوم-، والملائكة خلقهم الله علىٰ ما خلقهم عليه فهم لا يحتاجون إلىٰ أكل، ولا إلىٰ شرب كما يحتاجها الإنس والجن؛ ولكنهم مفتقرون في وجودهم إلىٰ الله الذي أوجدهم، والمهم أنَّا إذا وصفنا الله بصفاته التي وصف نفسه بها في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله فإنَّا نعتقد بأن صفاته غاية في الكمال وعلو الشأن.

* **قوله: «لـم يزل بجميع صفاته وأسمائه».**

* **الشرح:**

أي: أنه لم يزل متصفًا بصفاته الذاتية، وصفاته الفعلية، وصفات الذاتية

والفعلية، فهو لم يزل متصفًا بها جميعًا، والصفات تنقسم إلا ثلاثة أقسام:

أولاً: صفات ذاتية محضة: كصفة السمع والبصر، وصفة الوجه واليدين، وصفة الكفين والأصابع والرجل والساق والقدم.

ثانيًا: صفات ذاتية فعلية: كصفة الكلام، والخلق وما أشبه ذلك.

ثالثًا: صفات فعلية: كصفة الاستواء وصفة النزول، والمجيء، وصفة الإتيان.

فهذه الصفات كلها يجب أن نثبتها لله ﷻ، إثباتًا يليق بجلاله منزهًا عن النقص والحدوث، ولهذا قال المصنف: «**تعالىٰ الله أن تكون صفاته مخلوقة، أو أسماؤه محدثة**».

* **قوله: «كلم الله موسىٰ بكلامه الذي هو صفة ذاته التي يفعلها متىٰ شاء، وكيف شاء»**.

* **الشرح**:

وأهل السنة يقولون: نعتقد أن الله يتكلم بكلام قديم النوع حادث الآحاد، ومعنىٰ ذلك: أن الكلام صفة لله هو متصف بها، فهو يتكلم متىٰ شاء وكيف شاء.

فقولهم: قديم النوع؛ يعني: أن الكلام صفة لله ثابتة لجلاله، موجودة بوجوده الذي ليس له ابتداء، ولـم يكن له ابتداء، ولا يكون له انتهاء.

أما قولهم: حادث الآحاد، فمعناه: أن الكلام يحدث منه سبحانه متىٰ شاء، وفي الوقت الذي يشاء، فهو موصوف بالكلام، ومن لا يتكلم فهو ناقص، ومن لا ينطق فعنده نقص، كيف يمكن أن يكون إلهًا، والله ﷻ قد وصف أقوامًا من الناس بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها، ولهم أعينًا لا يبصرون بها، ولهم آذانًا لا يسمعون بها، فمن لـم يكن موصوف بالفهم والبصر والسمع فهو ناقص؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والكلام عدمه نقص، ووجوده كمال في حق الإنسان، فلو أن قومًا أرادوا أن يملِّكُوا عليهم ملكًا فاختاروا ذلك الملك، بأن يكون أبكم لا يتكلم وأعمىٰ لا يبصر، وأصم لا يسمع وضعيف الفهم لا يفهم، أيكونون قد أصابوا؟!

الجواب: لا، فكيف يكون جبار السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما علىٰ غير مثال سبق يوصف بأنه لا يتكلم، يصح أن يكون إلهًا لا يتكلم؟!

الجواب: لا، وقول الله ﷻ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١٧٩]. فوصفه بأنه محدث إنما هو بالنسبة للمخلوقين، أما باتصاف قائله به فليس بمحدث بل إن الكلام صفة له -جل وعلا- علىٰ ما يليق بجلاله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤].

وقال -جل من قائل-: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

وقال ﷻ: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

فذم الله المنافقين بعدم السمع، وعدم الكلام وهو البكم، وعدم البصر وهو العمىٰ، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

فهذه الآيات مثبتة لكلام الله ﷻ علىٰ ما يليق بجلاله، وأن هذه الصفة

قديمة بقدمه باقية ببقائه كاملة بكمال المتصف بها ﷻ، وفي الحديث: «**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتىٰ يرتحل من منزله ذلك**»[1].

والله تعالىٰ يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]. وهذا من حيث اتصافه بالكلام.

والقرآن كلام الله ﷻ أنزله علىٰ عبده ورسوله؛ ليكون تشريعًا لعباده إلىٰ يوم القيامة، وقد وصف به نفسه، وأضافه إليه حيث يقول -جل من قائل-: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ﴾ [التوبة:٦]. فمن زعم أن القرآن مخلوق، فهو كافر بهذه الآيات التي سردناها.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة من أهل الحديث والفقه علىٰ أن من قال: القرآن مخلوق؛ فإنه كافر، وكذلك من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع.

وبعضهم كفَّر من قال ذلك؛ ولكن الأكثر علىٰ وصفه بالابتداع؛ بل ومن وقف فلم يقل: مخلوق، ولا غير مخلوق، ولم يجزم بأنه كلام الله فهو مبتدع أيضًا، ولقد وقف الإمام أحمد ومن معه من أهل السنة موقف الصرامة من الواقفة.

وممن صرح بأن لفظه بالقرآن مخلوق، فهجروهم ومنعوا أخذ العلم عنهم، وإن كانوا علماء؛ وإنما كان ذلك منهم لأجل قطع الطريق علىٰ من يريد التلاعب في القرآن فأطلق أن لفظه بالقرآن مخلوق؛ حيث إن اللفظ يشمل فعل العبد،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في التعوذ من سوء القضاء .. (٤ / ٢٠٨٠، ح٥٤، ٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم.

ويشمل القرآن الذي هو كلام الله، فمن ذلك كان موقفهم من هذا النوع من الناس، موقف القوة والصرامة.

فقد نهىٰ أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن إتيان الحسين بن علي الكرابيسي، وعن أخذ العلم عنه، ومنع -رحمه الله- أن يسمح بدخول داود الظاهري عليه من أجل أنه وقف، وكذلك يعقوب الدورقي، وأمثال هؤلاء الذين وقفوا، ولهذا قال المصنف: «**وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق**».

*** قوله: «وتجلىٰ للجبل فصار دكًّا من جلاله».**

*** الشرح:**

أي تجلىٰ الله للجبل فصار دكًّا من جلاله، يشير المصنف في هذه الجملة إلىٰ قوله ﷻ عن موسىٰ عليه السلام أنه قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وفي الحديث: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «**إن الله لا ينام...**».(١/ ١٦٢، ح٢٩٥)(١٧٩)، وأحمد (٤/ ٤٠٥) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

* **قوله: «والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه علم كل شيء قبل كونه فجرىٰ علىٰ قدره، ولا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به** ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]».

* **الشرح:**

الإيمان بالقدر خيره وشره، ركن من أركان الإيمان الستة لا يؤمن أحد إلا بالإيمان بذلك وقد روىٰ مسلم[١]: أن عبد الله بن عمر ﷺ بينما هو داخل المسجد اكتنفه رجلان من أهل البصرة فقال أحدهما -وظن أن صاحبه سيكل الكلام إليه-: قال: إنه قد ظهر قِبَلنا أقوام يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، يزعمون أن لا قَدَرَ، وأن الأمر أُنُف.

فقال له عبد الله بن عمر: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني براء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما تُقبل منه حتىٰ يؤمن بالقدر خيره وشره».

ثم شرع يحدث عن أبيه بالحديث الذي حدثه عن مجيء جبريل عليه السلام وسؤاله النبي ﷺ عن أركان الإسلام والإيمان، والإحسان فذكر أن أركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

وأن أركان الإيمان ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام ... (١/ ٣٦، ح١، ٨)، وأحمد (١/ ٥١).

الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره... الحديث.

فالإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يصح إيمان عبدٍ إلا بذلك، وقد خالف في ذلك فئتان هما:

- القدرية النفاة.
- والقدرية الغلاة.

فالقدرية النفاة: هم الذين يزعمون أن الله قدر الخير، ولم يقدر الشر، وهذا هو المذهب السائد عند المعتزلة، وهم في زعمهم أنهم ينزهون الله عن كونه يقدر الشر ثم يعاقب عليه، ولم يعلموا أنهم قد وقعوا فيما هو أشر مما فروا منه، فإنهم إذا زعموا أن الله خالق الخير، وأن كل إنسان خالق للشر الذي يصدر منه، من: كفر، وفجور، ومعاص كبائر، أو صغائر، فإن ذلك يستلزم أمورًا:

أولها: أنهم قد أثبتوا خالقين فشابهوا المجوس بذلك.

ثانيها: أنهم قد نسبوا الله إلىٰ العجز، حينما يكونُ في كونه شيء لم يقدِّره.

ثالثها: أن ذلك يستلزم أن الله كان مغلوبًا علىٰ أمره، وأن الكفار غلبوه، وهذا قول باطل.

وأما القدرية الغلاة: فهم الذين يقولون: إن العبد مجبور علىٰ ما صدر منه، سواء كان كفرًا، أو إيمانًا، أو طاعةً، أو معصيةً، وزعموا أن الإنسان بمنزلة الغصن الذي يحرَّك، والحجر الذي يُدَحرَج، وهذا القول قول باطل أيضًا.

وكل إنسان من هذه الخليقة كلها يحس بأنه حر في اختياره، فهو يفعل ما يشاء بخيرة نفسه، وأنه لا إجبار عليه، وهذان القولان هما قولا القدرية.

أما أهل السنة والجماعة، فإنه يقولون: أن الله -جل وعلا- له إرادتان:

الأولىٰ: إرادة كونية قدرية، أراد فيها وقوع الخير، والشر، والإيمان، والكفر، والطاعة، والمعصية، وكَتَبَ ذلك علىٰ العباد، وكل منهم صائر إلىٰ ما كتب له أو عليه بما منحه الله من قدرة، وما رُكِّب فيه من إرادة واختيار.

أما الإرادة الأخرىٰ: فهي الإرادة الشرعية، وأن العباد مخلوقون، وأعمالهم مخلوقة أيضًا.

يدل علىٰ ذلك قول إبراهيم الخليل لقومه فيما حكاه الله عنه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]. فأخبر أن أعمالهم مخلوقة كما أنهم هم مخلوقون، وأن الله يجازي العباد علىٰ كسبهم، الذي فعلوه بمحض إرادتهم واختيارهم، وله علىٰ عباده الحجة الدامغة، وله فيهم الحكمة البالغة، ويؤمن أهلُ السنة والجماعة بأن الله لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بذنب، وأن الله لا يظلم أحدًا من خلقه كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧].

وقال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وقال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة: يعتقدون أن الله خلق العباد وأعمالهم، وأنه يثيبهم عليها، أو يعاقبهم بسبب كسبهم لها الذي صدر عن محض إرادتهم واختيارهم، وجلَّ ربنا وتقدَّس من أن يظلم أحدًا من خلقه.

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم[١]، عن أبي ذر ﵁، عن النبي ﷺ -فيما يرويه عن ربه ﷻ -: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**».

فدلت الأدلة الشرعية أن الله لا يظلم أحدًا من خلقه، إلا أن الله يُنَزَّه عن نسبة الشرِّ إليه إجلالاً له ﷻ؛ ولهذا قالت الجن حين طُردوا من السماء: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ [الجن:١٠].

فقولهم: أشرٌّ أريد بمن في الأرض، إنما قالوا ذلك تنزيهًا لله ﷻ مع علمهم بأن الله هو خالق الخير والشر.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»[٢]. فنزه النبي ﷺ ربه عن نسبة الشر إليه.

ويؤمن أهل السنة والجماعة أن الله يمنُّ علىٰ من يشاء من عباده بالهداية، فضلاً منه ورحمة وكرمًا، وأن الله يضل من يشاء من عباده بالهداية، عدلاً منه ﷻ؛ لذلك فإن الواجب علينا أن نسير علىٰ ضوء ما قرره لنا ربنا في كتابه، وما قرره لنا نبينا ﷺ في سنته، وألاَّ نُحكِّم عقولنا في هذا الأمر.

ومن هنا يتبين أن مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وأن المذاهب الأخرىٰ مذاهب ضلال سواء منها ما هو غلو أو تقصير.

*** أما قوله: «علم كل شيء قبل كونه فجرىٰ علىٰ قدره».**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤)، ح(٥٥)(٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل (١/ ٥٣٥) ح(٢٠١)(٧٧١) عن علي بن أبي طالب، وهو جزء من حديث طويل.

* **الشرح:**

فنحن نقول: إن الله قدَّر هذه المقادير وقضاها وكتبها في اللوح المحفوظ.

فقول المصنف: «**علم كل شيء قبل كونه**». هذا ربما يكون فيه مدخل لمن يقول: إن العباد يخلُقُون أفعالهم بأنفسهم، وأن الله عَلِم منهم أنهم سيعلمون ما يعلمون، ولم يكن هذا الاعتقاد خطأ بل نقول: إن الله قدر ما قدر في هذه الكائنات، وقضاه في كتابه اللوح المحفوظ -أي: كتب ما قدره-.

أما كونه «**عَلِم كل شيء قبل كونه**». أي: أنه علم بكونه قد قدره وقضاه، ولهذا فقد ورد أن الكرام الكاتبين يكتبون ما حصل من العباد من أعمالهم القولية والفعلية، وكذلك ما انعقدت عليه قلوبهم، ثم إنهم يعرجون بعدما يكتبون ما حصل من العباد من أعمالهم القولية والفعلية.

وكذلك ما انعقدت عليه قلوبهم، ثم إنهم يعرُجُون بعدما يكتبون هذه الكتابات، فيطبِّقونها علىٰ ما كُتب في اللوح المحفوظ، فيجدونها مطابقة لذلك أكمل المطابقة، ثم إن للقدر أربع مراتب:

الأولىٰ: عِلْمُ الله ﷻ بتقدير المقادير.

الثانية: كتابتها في اللوح المحفوظ.

الثالثة: وقوعها تحت مشيئته.

الرابعة: الخلق والإيجاد.

وينقسم القدر من حيث التفصيل في العلم والكتابة إلىٰ أقسام:

١- **القدر العمري:** وهو حينما يدخل المَلَكَ علىٰ النطفة، ويكتب ما قُدِّر لها من شقاوة وسعادة، وما إلىٰ ذلك، وإليه أشار ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: حدثنا

الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسلُ إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد...**». الحديث[1].

٢- **القدر الحولي**: وهذا يكون في ليلة القدر، فيكتب فيها ما يحدث خلال الحول، كما قال تعالىٰ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤].

٣- **القدر اليومي**: وهو بيان ما يخص كل يوم كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

٤- **القدر الأزلي**: وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]. وعلىٰ هذا يكون القدر المتعلق بالكتابة أربعة أقسام: أزلي، وهو القدر العام، والعمري، والحولي، واليومي والثلاثة الأخيرة مأخوذة من الأزلي.

* **قوله: «يضل من يشاء فيخذله بعدله ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله».**

* **الشرح:**

قد تقدم لنا أن الله ﷻ كتب مقادير هذا الكون وقضىٰ فيه بما قضىٰ من شقاوة وسعادة وحياة وموت وصحة ومرض وغنىٰ وفقر وإعزاز وإذلال وتمليك وسلب، فكل شيء قد قضاه وكتبه في لوحه المحفوظ قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: خلق آدم (ح٣٣٣٢)، ومسلم في كتاب القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته وسعادته (٤/ ٢٠٣٦) ح(١)(٢٦٤٣).

﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

وقال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢].

وصح عن النبيﷺ أنه قال: «**إن الله مسح ظهر آدم، فاستخرج ذريته كالذر فقبض قبضة فقال: هؤلاء إلىٰ النار ولا أبالي، وقبض قبضة أخرىٰ فقال: هؤلاء إلىٰ الجنة برحمتي**»(١).

وتقدم لنا أن الله ﷻ عدلٌ لا يظلم أحدًا من خلقه، كما قال تعالىٰ -جل من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. إلىٰ غير ذلك.

وفي الحديث القدسي قال الله -تبارك تعالىٰ-: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»(٢).

وعلىٰ هذا فنحن نقول: إن الله ﷻ يضل من يشاء بعدله فيخذله، ويخلي

---

(١) أخرجه أحمد بلفظ: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه، وهو يبكي فقالوا له: ما يبكيك: ألم يقل لك رسول اللهﷺ خذ من شاربك ثم أقره حتىٰ تلقاني؟ قال: بلىٰ، ولكني سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**إن الله ﷻ قبض بيمينه قبضة، وأخرىٰ باليد الأخرىٰ، وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالي**». ولا أدري في أي القبضتين أنا.

انظر: مسند أحمد (٤/ ١٧٦)، (٥/ ٦٨)، قال الحافظ في ترجمة هذا الصحابي في الإصابة: سنده صحيح. انظر: الإصابة (٤/ ١٢٦).

(٢) مر تخريجه (ص٤٣).

بينه وبين الشيطان فيستولي عليه، ويقوده إلىٰ نار جهنم، قال ﷻ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٥].

وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦].

فالإضلال قدرٌ من الله والعبد كاسب للضلال وفاعل له باختياره وبتأثير الشيطان عليه، والله ﷻ يعاقبه بهذا الكسب والاختيار.

«**ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله**»: أي: أن الله ﷻ إذا أراد بعبد خيرًا يسر له من يقوده إلىٰ الخير، وإذا أراد الله بعبد شرًّا خلىٰ بينه وبين نفسه وشيطانه.

وقد قال الصحابة -رضوان الله عليهم-: «أرأيت ما نعمل يا رسول الله هل هو في أمر قد فُرِغَ منه، أم أمر مستأنف؟ فقال ﷺ: **بل في أمر قد فُرغ منه**. قالوا: ففيم العمل إذن يا رسول الله، أفلا نتكل علىٰ كتبنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: **اعملوا فكلٌّ ميسر لما خُلق له، فأهل السعادة يُيسَّرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة يُيسَّرون لعمل أهل الشقاوة**»[1].

اللهم إنا نستجير بك من الخذلان، ونعوذ بك من الانتكاس بعد الاستقامة، ومن الغي بعد الرشد، نسألك أن تثبتنا علىٰ الحق حتىٰ نلقاك؛ لهذا قال المصنف: «**فكل ميسر بتيسيره إلىٰ ما سبق من علمه وقدره من شقي وسعيد**». وكان الأولىٰ أن يقول: «**من شقاوة أو سعادة**».

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر (ح١٣٦٢)، ومسلم في كتاب القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي (٤/ ٢٠٣٩) ح(٦)(٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

* **ثم قال -رحمه الله-: «تعالىٰ الله أن يكون في مُلكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنىٰ».**

* **الشرح:**

أي: أن القائلين بالقدر، وهم: القدرية النفاة، يتضمن قولهم أنه يقع في ملك الله ما لا يريد، وهذا مستحيل لا يكون في ملكه شيء إلا وقد أراده؛ بل سبق أن قلنا أن الله أراد الكفر، والفسوق، والعصيان كونًا، ومنعه شرعًا، وأن العباد صائرون إلىٰ ما أراده كونًا.

فالذين يقولون: إن الخير من الله، والشر من الإنسان؛ جعلوا خالقين فأشبهوا المجوس، ولزم من قولهم أن يكون في ملك الله ما لا يريد، واقتضىٰ هذا القول أن يكون الله مغلوبًا، وهذا القول باطل، فالله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١].

* **قوله: «أو يكون خالق لشيء إلا هو رب العباد ورب أعمالهم، والمقدر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم».**

* **الشرح:**

قوله: «**أو يكون**» أي: تبارك وتعالىٰ أن يكون أحد خالق غيره سبحانه الذي هو ربُّ العباد وربُّ أعمالهم، وقد علمنا مما سبق أن الله خالق للعباد، وخالق لأعمالهم.

واستدللنا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]. فهو الخالق لهم، والمقدر لحركاتهم وآجالهم، وأن العباد صائرون إلىٰ ما قدره لهم وعليهم.

أما من الناحية الشرعية فقد أرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب؛ لإقامة

الحجة عليهم، وبيان الحقِّ لهم فمن تبع الرسل وأطاعهم فقد نجا، ومن خالفهم وعمل علىٰ غير ما جاءوا به فقد هلك.

* **قوله: «ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيهﷺ فجعله آخر المرسلين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا».**

* **الشرح:**

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وفي الحديث أن النبيﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي؛ كمثل رجل بنىٰ بنيانًا فحسنه وجمله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بذلك البناء، ويقولون: ما أجمله لو وضعت فيه تلك اللبنة؛ فأنا تلك اللبنة**»(١). أو كما قال ﷺ.

لقد مضت الرسالات في عمر البشرية، فأرسل الله رسلاً إلىٰ أممهم فيهم من قص خبرهم، ومنهم من لم يقصص خبرهم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨].

فنحن نؤمن بأن لله رسلاً قصَّهم علىٰ نبيه عرَّفنا أخبارهم، وأخبار أممهم، وما آل إليه أمرهم، وعرفنا بأسمائهم، ونعلم أن الله أرسل رسلاً طوىٰ أخبارهم في علم

(١) رواه البخاري كتاب المناقب، باب: خاتم النبيين (ح٣٥٣٥)، ومسلم كتاب الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٤/ ١٧٩١) ح(٢٣)(٢٢٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الغيب، فلم يطلع عليها أحدًا من خلقه؛ فلذلك كان خبرهم مكتومًا، وأمرهم غير معلوم.

وقد قال النبي ﷺ: «**عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فإذا هم موسىٰ وقومه، ثم رفع لي سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب...**» الحديث[(١)].

أما أمة محمد ﷺ فقد جعلها الله آخر الأمم، وجعله هو خاتم الرسل وآخرهم، وجعل في علماء أمته مجددين، يجددون للناس ما اندثر من دينهم، وجعلهم بمنزلة الأنبياء في بني إسرائيل، وإن رسول الله ﷺ هو خاتم الرسل وأفضلهم، كما أن أولي العزم هم أفضل الرسل؛ فكذلك هو أفضل أولي العزم؛ فلهذا فهم جميعًا يترادَّون الشفاعة، ويرون أن مقاماتهم أقل من أن تؤهلهم لذلك؛ ويكون الرسول ﷺ هو صاحب الشفاعة العظمىٰ التي هي المقام المحمود، وهي الشفاعة في فصل القضاء، والشفاعة الثانية في استفتاح باب الجنة.

فضَّله الله علىٰ غيره من الرسل، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ ذلك بقوله: «**ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري كتاب الطب، باب: من لم يرق (٣٤١٠)، ومسلم كتاب الإيمان، باب: الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة .. (١/ ١٩٩) ح(٣٧٤)(٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي (ح٤٩٨١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ.. (١/ ١٣٤) ح(٢٣٩)(١٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمقصود بالذي أوتيته هو: القرآن ، فقد شرح رسول الله الدين، وبينه بسنته المكملة للقرآن والمفسرة له، ويتكون منها الصراط المستقيم الذي دعا الله عباده إليه بقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

* **قوله: «وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدىٰ به الصراط المستقيم».**

* **الشرح:**

أي: أن الله ﷻ حين أرسل نبيه محمدًا ﷺ، وختم به الرسالات السماوية أنزل عليه كتابه الحكيم الذي هو القرآن، كتاب: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وهو كتاب عربي مبين، جمع الله فيه أخبار من مضىٰ، ونبأ ما يأتي، وضرب فيه الأمثال، وبيَّن فيه الحرام والحلال، وقد بيَّن النبيﷺ ما أُجمل من الأوامر في القرآن كالصلوات، وأوقاتها، وعدد ركعاتها، وفرضها ونفلها، وبين فيه الزكاة المفروضة وأنصباءَها.

فالسنة شارحة للقرآن، ومبينة له، ومفصلة لمجمله، ولم يتوفَ الله رسوله ﷺ حتىٰ ترك أمته علىٰ محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وأمرهم باتباع ما جاء به في قوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٨-١٩].

فالصراط المستقيم هو الدين الذي تركنا عليه بعد أن بينه بأقواله وأفعاله، -صلوات الله وسلامه عليه-، وقال: «**قد تركتكم علىٰ بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»[(١)].

فالزوغان عن دينه القويم هلكة لمن فعله، نعوذ بالله أن نزيغ بعد الاستقامة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

يوم القيامة يتحول الصراط المستقيم الذي كان في الدنيا شيئًا معنويًّا، وهو الاستقامة علىٰ الحق الذي أتىٰ به، فيتحول ذلك فيجعله صراطًا ممدودًا علىٰ جسر جهنم، من استقام علىٰ الصراط المعنوي في الدنيا، مر علىٰ الصراط الممدود علىٰ جسر جهنم بسهولة ويسر، من تَلَفَّتَ يَمنة ويَسرة، وأخذته بُنَيات الطريق، فإنه سينقطع به ذلك الجسر الذي هو ممدود علىٰ متن جهنم، وهو أحدُّ من السيف، وأدقُّ من الشعر، مزلقة مزلة وعليه كلاليب تخطف الناس الذين لم يستقيموا عليه في الدنيا، وتلقيهم في نار جهنم، والعياذ بالله، اللهم إنا نسألك السلامة.

*** وقوله: «وأن الساعة آتية لا ريب فيها، كما أخبر الله، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون».**

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (١/ ١٦) ح(٤٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٧).

* الشرح:

إن الساعة آتية لا ريب فيها كما أخبر الله، وأن الله يبعث من في القبور، والله ﷻ يقول: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧]. فالبعث كائن ولابد إذا انقضت أيام الدنيا، وانقضت الخليقة التي أراد الله خلقها علىٰ هذه الأرض.

بعد ذلك ستكون النفخة التي يكون بها الصعق، ثم الموت، وقد قال النبي ﷺ: «**لتقومن الساعة، والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فلا يبتعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة والرجل يلوط حوض إبله فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد حلب لِقْحَتَهُ فلا يشربه**»[1].

وذلك أن النفخة في الصور تعاجلهم عن هذه الأمور كلها، وكلٌّ يموت في مكانه، وتموت الملائكة أيضًا حتىٰ حملة العرش، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذي ينفخ في الصور، وملك الموت الذي يقبض الأرواح، ويأتي تأويل قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

ويبقىٰ الكون مدة طويلة، الله أعلم بقدرها، ثم إذا أراد الله قيام الساعة أحيا الله إسرافيل -صاحب الصور- وجمع له الأرواح في فوهة الصور بعد أن يرسل مطرًا كمني الرجال أربعين يومًا، فينبت الناس في قبورهم وكل شيء يفنىٰ من الإنسان إلا عَجب الذَّنَب، فهو يركَّب منه، فإذا تكاملوا جمع الله الأرواح في فوهة الصور.

ثم يأمر إسرافيل فينفخ فيه، فتطير الأرواح إلىٰ أجسادها، وكل روح تعرف جسدها أين هو فتأتي إليه، وتدخل فيه، ثم تنشق الأرض عنهم، فيقومون من

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٤/ ٢٢٧٠) ح(١٤٠)(٢٩٥٤).

قبورهم؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ولا فخر، فأرفع رأسي فإذا موسىٰ بن عمران باطش بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أجوزي بالصعقة أم كان ممن استثنىٰ الله**»(١).

ثم ينادي مناد: يا أيها الناس، هلمُّوا إلىٰ ربكم فيتبعون ذلك المنادي، والله ﷻ يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:١-٨].

وقال الله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]. وإلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ قيام الساعة.

فقيام الساعة أمر لابد منه، وحينئذٍ يقفون موقفًا طويلاً تدنو منهم الشمس، ويعلوهم العرق، ويشتد الكرب من هول ذلك اليوم الذي وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾.

ثم إن الله ﷻ بعد زمن طويل يأمر بفصل القضاء بعد شفاعة نبينا محمد ﷺ، فينادي الله آدم: أن أخرج بعث النار من ذريتك، فيقول: من كم يا ربِّ؟ فيقول: من

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسىٰ (٤/ ١٨٤٣) ح(١٥٩)(٢٣٧٣).

كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون[1]. نسأل الله السلامة.

هذه هي الساعة، وهذه بعض صفاتها، وحينئذٍ يتفرق الناس، فريق في الجنة، وفريق في السعير، يتفرقون تفرقًا لا لقاء بعده، اللهم سلمنا فيمن تُسلم يا رب العالمين.

*** قوله: «وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائرًا إلىٰ مشيئته حيث قال:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨]».

*** الشرح:**

أراد المصنف -رحمه الله- أن يبين ما فعله الله لعباده المؤمنين من مضاعفة الحسنات، حيث جعل الحسنة بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، أما السيئة فهي بمثلها واحدة أو يعفو، ومن هَمَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه شيئًا، وهذا من رحمة الله بعباده.

وجعل الإتيان بالفرائض مع اجتناب الكبائر مكفرًا للصغائر، وقد قال النبي ﷺ: «**أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرًا يغتسل منه كل يوم خمس مرات، أيبقىٰ من درنه شيء؟** قالوا: لا يبقىٰ من درنه شيء. قال: **فإن مثل ذلكم كمثل الصلوات**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]. (٦٥٣٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار (١/ ٢٠١) ح(٣٧٩)(٢٢٢).

الخمس؛ يكفر الله بهن الخطايا»[(١)]. لكن من عمل كبيرة من موجبات دخول النار، فسترها الله عليه، فأمره إلىٰ الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، أما إن اقترف حدًّا وأقيم عليه، فإن الحد يكون كفارة له.

وقد بيَّن لنا ﷻ أنه يغفر جميع الذنوب ما عدا الشرك بالله، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾.

فأصحاب الكبائر مصيرهم إلىٰ مشيئة الله ﷻ، أما من مات وهو يشرك بالله ﷻ فهو لابد أن يكون من أهل النار، فالمشرك شركًا أكبر محرم عليه دخول الجنة، ومحتم عليه دخول النار، كما قال ﷻ علىٰ لسان عيسىٰ عليه السلام: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢]. اللهم سلم سلم.

*** قوله: «ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته، قال تعالىٰ:** ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] **ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته».**

*** الشرح:**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلىٰ الصلاة... ح(٢٨٣)(٦٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**ومن عاقبه بناره ...**»إلخ. المقصود به أهل الكبائر من الموحدين، إذ إن أهل الكبائر من الموحدين تحت المشيئة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبر في كتابه أن اجتناب الكبائر موجب لمغفرة ما دونها، فقال -جل وعلا-: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١].

وفي الحديث: «**الصلاة إلىٰ الصلاة، ورمضان إلىٰ رمضان، والحج إلىٰ الحج، والعمرة إلىٰ العمرة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[١].

هذه أدلة تدل علىٰ أن من اجتنب الكبائر أن الله يغفر له ما دونها بأدائه الفرائض، وما يتعلق بها كالطهارة، والمشي إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة، وما أشبه ذلك.

أما من لقي الله مصرًّا علىٰ الكبائر، ومعه أصل الإيمان، وأصل التوحيد الذي يصح به الإسلام، فإن أمره إلىٰ الله: إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة بدون عذاب، وإن شاء عاقبه في النار ليطهره من ذنوبه، ثم أخرجه منها وأدخله الجنة.

وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن أقوامًا من أمته يتساقطون من فوق الصراط، تخطفهم الكلاليب المعلقة من فوقه فترميهم في نار جهنم، وأن النار تحرق منهم كل أجسادهم ما عدا مواضع السجود، فإذا شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يخرجهم منها أذن للشفعاء فيدخلون عليهم فيجدونهم قد صاروا حممًا، ولا يعرفونهم إلا بمواضع السجود، فيخرجونهم منها ويضعونهم علىٰ نهر الحياة -نهر في أفواه

---

(١) لم أجده بهذا السياق، فلعل الشيخ دخل عليه حديث في حديث، ولفظ الحديث في مسلم: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**».
مسلم في كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة.. (١/ ٢٠٩) ح(١٦)(٢٣٣)، وفي الصحيحين: «**العمرة إلىٰ العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**».
أخرجه البخاري (١٧٧٣) من كتاب العمرة، ومسلم (٤٣٧)(١٣٤٩) من كتاب الحج.

الجنة- فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حَميل السيل، وردت بذلك أحاديث كثيرة.

وأن النبيﷺ يشفع وسائر الأنبياء يشفعون، وكذلك الصديقون، والشهداء، والصالحون كلهم يشفعون، وأن الله يخرج من النار ثلاث حثيات بفضله، وأنه يخرج من النار أقوامًا لم يعملوا خيرًا قط، فيسكنهم جنته، ومع ذلك يبقىٰ فيها فضل فيخلق الله أقوامًا ثم يسكنهم فيها.

وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وخالفت في ذلك الخوارج والمعتزلة فأنكروا الشفاعة، وأنكروا خروج الموحدين من النار، وزعموا أن من دخل النار أنه لا يخرج منها، والذي أوقعهم في ذلك الجهل؛ حيث إنهم حملوا الآيات الواردة في الكفار علىٰ المسلمين الموحدين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]. وكقوله تعالىٰ: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠]. إلىٰ غير ذلك من الآيات التي قُصد بها الكفار؛ فأخطئوا في ذلك خطأً فاحشًا؛ ترتب عليها مخالفات في العقيدة، استحقوا فيها مقت الله وغضبه؛ لأنهم ردوا السنة بالكلية، أو ردوا ما عدا المتواتر من السنة كالمعتزلة.

والحقيقة أن ما أخبر عنه النبيﷺ من أخبار فهي كائنة ولابد، والله قد شهد لرسوله بأنه لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦]. وسواء في ذلك الأوامر والنواهي، أو الأخبار الغيبية، فكل ما أخبر عنه النبيﷺ من المغيبات وجب الإيمان به، واعتقاد صدقه وأحقيته.

والمهم أن الذي أوقعهم في ذلك هو تكذيبهم للسنة، فهلكوا بسبب

تكذيبهم لسنة رسول الله ﷺ.

*** قوله: «وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم».**

*** الشرح:**

الجنة والنار أخبر الله ﷻ عنهما في كتابه؛ بل في جميع كتبه، وأبدىٰ في ذلك وأعاد وأخبر أنه خلق الجنة نزلاً لأوليائه وأهل طاعته، أكرمهم فيها بما شاء من الكرامات، وأنه خلق النار وأعدها دار هوان ونكال لأعدائه قبل أن يخلق السموات والأرض.

قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٥١-٥٦]. أي: هذه تكرمتهم يوم القيامة، وضيافتهم؛ لأنهم كانوا علىٰ الكفر والتكذيب، حتىٰ نقلهم الله بالموت من دار الدنيا إلىٰ دار البرزخ، وهكذا أعدَّ الله لأهل كل عقيدة ما يستحقون من الجزاء، فالجنة دار الراحة والحبور، والنعمة وقرة العين، والنار دار الجحيم والنكال، ونسأل الله العفو والعافية.

*** قوله: «وأكرمهم فيها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم».**

*** الشرح:**

أي: أكرمهم في الجنة بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، والنظر إلىٰ وجهه الكريم ثابت بالكتاب والسنة، فالأدلة من الكتا ب هي قول الله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. فالنضرة في الآية الأولىٰ هي الرونق والحسن

والنعيم، وأما في الآية الثانية فعدَّاه بـ «إلىٰ» والمراد به النظر إلىٰ وجهه ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

ومن الأدلة علىٰ ذلك قول الله ﷻ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].فقد فسرت الزيادة بأنها النظر إلىٰ وجهه الكريم، هكذا فسر الآية بذلك جماعة من السلف، وأهل السنة يثبتون ذلك باتفاق منهم عليه.

أما الأدلة من السنة، ففي ذلك أحاديث منها:

حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة، فقلنا: يا رسول، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ قال: **هل تضامون**[(١)]. -وفي رواية[(٢)]: **هل تضارُّون- برؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟** قلنا: لا. قال: **وهل تضامون -أو قال: تضارون- في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب؟** قلنا: لا. قال: **فإنكم لا تضامون في رؤيته.** -أو قال: **لا تضارون- في رؤيته إلا كما لا تضارون في رؤيتهما**». أو كما قال ﷺ.

وهناك أحاديث عن غير جرير فمنها حديث أبي هريرة[(٣)] أورده ابن أبي عاصم في كتابه السنة، ومنها حديث أبي رزين -وهو لقيط بن عامر العقيلي-

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٤)، وفي كتاب التفسير، باب: قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]. (٤٨٥١).

(٢) عند البخاري فى كتاب الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم (٦٥٧٣)، وفي كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (٧٤٣٧) (٧٤٣٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ (١/ ١٦٣) ح (٢٩٩)(١٨٢) من حديث أبي هريرة. وفي (١/ ١٦٧) ح(٣٠٢)(١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) بل هو في الصحيحين: انظر التعليق السابق.

وحسنه الشيخ الألباني في تحقيقه لكتاب السنة[١].

* **قوله: «وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلىٰ أرضه لِـمَا سبق في سابق علمه».**

* **الشرح:**

إن من أهل العلم من قال: إن الجنة التي كان فيها آدم هي الجنة المعروفة التي خلقها الله للمؤمنين.

ومن أهل العلم من قال: إنها جنة غيرها، والقول الأول هو الأصح؛ بدليل أن موسىٰ عليه السلام لما لقي آدم وحاجَّه بقوله: **«أنت أبونا آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه؟ فما حملك أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال له آدم: أنت موسىٰ الذي كلمك ربك من وراء حجاب، لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فما وجدت ذلك في كتاب الله، أن ذلك كائن من قبل أن أُخْلَق؟ قال: نعم. قال: ففيم تلومني؟! في شيء قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلق السموات والأرض فحج آدم موسىٰ -عليهما السلام-»**[٢].

وهذا الدليل كافٍ في أن الجنة التي أُهبط منها هي الجنة التي يدخل فيها المؤمنون بإقرار الله عز وجل لموسىٰ في قوله: «**فَلِم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟**». فلو كان جنة غير الجنة المعروفة لما كانت لمحاجة موسىٰ فائدة.

---

(١) كتاب السنة (ص٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسىٰ (٣٤٠٩) من حديث أبي هريرة، وانظر: أيضًا (٤٧٣٦)، (٤٧٣٨)، (٦٦١٤)، (٧٥١٥)، ومسلم في كتاب القدر، باب: حجاج آدم وموسىٰ -عليهما السلام- (٤/ ٢٠٤٢) ح(١٣)(٢٦٥٢).

❊ **قوله: «وخلق النار، وأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته».**

❊ **الشرح:**

ما ذكره صاحب العقيدة هنا قد وردت فيه آيات كثيرة تدل علىٰ خلود الكفار في النار، فمن ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧].

وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٤٩-٥٢].

وقال ﷻ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٧-٧٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ

فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٣-١١١]. إن هذه الآيات لأعظم دليل علىٰ ما ذكره المصنف من خلود أهل النار فيها، وأنهم كانوا محجوبين عن رؤيته في الآخرة.

* **قوله: «وأن الله -تبارك وتعالىٰ- يجيء يوم القيامة والملك صفًّا صفًّا لعرض الأمم وحسابهم وعقوبتها وثوابها».**

* **الشرح:**

الدليل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢].

فأهل السنة يؤمنون بأن الله يأتي يوم القيامة لمحاسبة عباده وجزائهم، إذ إن الله ﷻ يجمع الناس جميعًا: الإنس والجن في صعيد واحد ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، وتدنو الشمس منهم، ويكونون في العرق علىٰ قدر أعمالهم، يقفون موقفًا طويلاً، وتنزل ملائكة السماء الدنيا، فتكون صفًّا من ورائهم، وملائكة السماء الثانية فتكون صفًّا، وملائكة السماء الثالثة، وهكذا تكون الملائكة صفوفًا من وراء الناس، فيقفون موقفًا طويلاً، ثم يفزعون، فيطلبون من يشفع لهم إلىٰ ربهم، فيذهبون إلىٰ آدم، فيقول: **لست لها، اذهبوا إلىٰ نوح**، فيذهبون إلىٰ نوح، فيقول: **لست لها، اذهبوا إلىٰ إبراهيم**. فيذهبون إلىٰ إبراهيم، فيقول: **لست لها، اذهبوا إلىٰ موسىٰ**. فيذهبون إلىٰ موسىٰ فيقول: **لست لها، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ**. فيقول: **لست لها، اذهبوا إلىٰ محمد**.

فإذا جاءوا إلىٰ النبي ﷺ قال: «**أنا لها، أنا لها، فيذهب إلىٰ ربه، فيسجد بين**

يديه قدر جمعة، ويفتح الله عليه بمحامد يحمده بها، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، واشفع تشفع. فحينئذ يرفع رأسه ويقول: **ربي أمتي أمتي**»[1].

فيأمر الله بفصل القضاء، ويجيء كما يشاء، وعلىٰ الوجه اللائق بجلاله، قال تعالىٰ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة:٢١٠].

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأنه يجيء كما يشاء، وحينئذٍ يحاسب الناس علىٰ أعمالهم، فتوضع الموازين، وتنشر الصحف، قال تعالىٰ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

ويؤمن أهل السنة بالموازين فتوزن الأعمال أي: توزن دواوين الأعمال، فدواوين الحسنات توضع في كفة، ودواوين السيئات توضع في كفة، ويوزن أيضًا الأشخاص؛ والدليل علىٰ ذلك قول النبي ﷺ: «**يؤتىٰ بالرجل السمين الأكول الشروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١] (٤٤٧٦)، وانظر (٦٥٦٥)، (٧٤١٠)، (٧٤٤٠)، (٧٥١٠)، (٧٥١٦)، ومسلم كتاب الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة (١/ ١٨٠) ح(٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦) (١٩٣) من حديث أنس، ورواه مسلم عن أبي هريرة، وعن حذيفة رضي الله عنهما ح(٣٢٧)(١٩٤)، ح(٣٢٩)(١٩٥)، في نفس الكتاب، والباب من صحيح مسلم.

(٢) أخرجه ابن عدي (٦/ ٢٣٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٦٧٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩/ ٦٩٠) تحقيق التركي، وهو في الصحيحين بلفظ: «**إنه ليأتي بالرجل العظيم السمين يوم القيامة،** =

ولما صعد عبد الله بن مسعود يجتني سواكًا، وجعل الصحابة ينظرون إلىٰ دقة ساقه فيضحكون، فقال النبي ﷺ: «**أتعجبون من دقة ساقيه، أما إنهما في الميزان لأثقل من جبل أحد**»[(١)].

* **قوله:** ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **والآية بعدها:** ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٣]. **وفي هاتين الآيتين دليل علىٰ أن الأعمال توزن، أي: دواوين الأعمال كما في حديث البطاقة.**

* **قوله: «ويؤتون صحائفهم بأعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيرًا».**

* **الشرح:**

للميزان كفتان: كفة للحسنات، وكفة للسيئات، وقد أخبرنا الله ﷻ بأن كل إنسان معه قرينان يكتبان أعماله، قال -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨].

فإذا كان يوم القيامة نزل علىٰ الشخص الملكان الموكلان به، فصاحب الحسنات معه ديوان الحسنات، وصاحب السيئات معه ديوان السيئات، ثم توضع

=

لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: **اقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]». أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠-٤٢١)، والطبراني (٨٤٥٢).

الدواوين بعد أن توضع الصحائف، فالمؤمنون توضع صحائفهم في أيمانهم ومن أمامهم، والمجرمون توضع صحائفهم في شمائلهم، ومن وراء أظهرهم، وكلٌّ منهم يقرأ ما في صحيفته.

قال ﷻ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

وهذه الدواوين توضع في كفتي الميزان، فمن رجحت حسناته على سيئاته كان من الناجين، ومن رجحت سيئاته على حسناته كان من الموبَقين، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

*** قوله: «وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم».**

*** الشرح:**

الصراط: اسم للطريق الذي رسمه الله للناس في كتابه، وعلى لسان رسوله، وكذلك في الكتب الأولى، والأمم الأولى، وعلى ألسنة رسلهم، فالله ﷻ رسم لنا طريقًا مستقيمًا، وأمرنا أن نسير عليه قال ﷻ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال ﷻ آمرًا عباده أن يدعوه بالهداية إلى الصراط المستقيم، فقال في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:١-٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥]. إلىٰ غير ذلك من الآيات.

والنبي ﷺ يقول حينما خط خطًّا مستقيمًا، وخط خطوطًا علىٰ جنبتيه، وقال: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط خطوطًا عليها ستور مرخاة، وعلىٰ كل خط منها شيطان يدعو إليه...**» الحديث[1].

فهذا الصراط هو الذي أشار إليه بقوله: «**تركتكم علىٰ بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»[2].

فهو الطريق الواضح الذي رسمه ﷺ لأمته بأقواله، وأفعاله، وجهاده، فمن استقام علىٰ هذا الصراط فإنه سيمر علىٰ الصراط الأخروي؛ وذلك أن الصراط المعنوي في الدنيا جعله الله ﷻ صراطًا حسيًّا، ونصبه علىٰ نار جهنم، فلا يمكن لأحد أن يصل إلىٰ الجنة إلا بعد المرور عليه.

وقال ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الصراط الأخروي: جسر ممدود علىٰ متن جهنم، أحدُّ من السيف، وأدقُّ من الشعر، وأن الناس يقطعونه بأعمالهم، فمن استقام

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب: اتباع سنة رسول الله ﷺ (١/ ٦) ح(١١)، والدارمي (١/ ٦٧-٦٨)، وصححه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين برقم (٨٤٨).

(٢) تقدم تخريجه (٥٢).

علىٰ الصراط المعنوي في الدنيا أعانه الله ﷻ، وقطع ذلك الصراط.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس يختلفون في السرعة عليه، فمنهم من يمر كالبرق، وكلمح البصر، وكالرياح، وكأجاويد الخيل، وكسعي الرجال، ومنهم من يمشي، ومنهم من يهرول، ومنهم من يكون له شمعة علىٰ ظفر إبهام قدمه اليمنىٰ تشع تارة، فيتقدم، وتنطفئ فيقف، ومنهم من يزحف علىٰ بطنه تلفحه النار من هاهنا وتلفحه من هاهنا حتىٰ يقطعها، كل هذا سيحصل.

وكثير من الناس يسقطون من فوقه، ومن فوقه كلاليب كشوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فتلقيهم في نار جهنم، وإنما يمر علىٰ الصراط أمة الإجابة الموحدون أما المشركون، والكفار، والمنافقون نفاقًا اعتقاديًّا فهم مع أنواع الكفار يساقون إلىٰ النار سوقًا، ويدخلون من أبوابها كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٣-٤٤].

وقال ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧١-٧٢].

والمهم، أن الصراط إنما يمر عليه أمة الإجابة، أما الكفار الصرحاء، والمشركون شركًا أكبر، والملحدون، والمنافقون نفاقًا اعتقاديًّا، فإنهم يساقون إلىٰ النار سوقًا، اللهم إنا نعوذ بك من أن نَضِلَّ أو نُضَل، نعوذ بك من خسران الدنيا والآخرة، ونسألك الثبات علىٰ الحق كما وفقتنا إليه، نسألك أن تثبتنا عليه.

* **قوله: «والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمتُه لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدَّل وغيَّر».**

* **الشرح:**

قد أخبر النبي ﷺ أن له حوضًا آنيته أكثر من عدد نجوم السماء، فقد روىٰ ابن أبي عاصم في كتاب السنة، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: قلت: «يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: **والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء، وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية؟ من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عُمان إلىٰ أيلة؟ وماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل**»[(١)].

وروىٰ أيضًا بسنده إلىٰ أبي الوازع، وهو: جابر بن عمرو، أنه سمع أبا برزة الأسلمي يقول: «**ما بين ناحيتي حوضي كما بين أيلة إلىٰ صنعاء، مسيرة شهر، عرضه كطوله فيه ميزابان يشخبان من الجنة، من وَرِقٍ وذهب، أبيض من اللبن، وأحلىٰ من العسل، فيه أباريق عدد نجوم السماء**»[(٢)].

وروىٰ من طريق أبي بكر بن أبي شيبة أيضًا، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «**إن لي حوضًا طوله ما بين الكعبة إلىٰ بيت المقدس أبيضُ من اللبن، آنيته عدد النجوم، وإني لأكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة**»[(٣)].

وأورد حديثًا عن حذيفة، قال: «حوض النبي ﷺ أبيض مثل اللبن، وأحلىٰ

(١) السنة، لابن أبي عاصم (ج١/ ٤٨٨) تحقيق الجوابرة.

(٢) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٤٨٩).

(٣) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٤٩٠).

من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحًا من المسك...» الحديث[1].

وروىٰ من طريق ابن أبي شيبة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أمامكم حوضًا كما ما بين جرباء وأذرح**»[2].

وأخرج عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ويزيد بن الأخنس وحارثة: رجلٌ من خزاعة، سمع النبي ﷺ يقول: «**إن ما بين حوضي ما بين مكة وصنعاء**»[3].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري علىٰ حوضي**»[4].

والمهم: أن حوض النبي ﷺ ثابت من أوجه صحيحة لا شك فيها، وأنه يشرب منه المؤمنون، ويذاد عنه أهل النفاق، وفي الحديث: «**بينما أنا قائم علىٰ حوضي إذ أقبل رجالٌ من أمتي أعرفهم، حتىٰ إذا هممت أن أناولهم، خرج رجل من بيني وبينهم، وقال: هلمَّ. فأقول: إلىٰ أين؟ فيقول: إلىٰ النار والله، فأقول: إنهم من أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فإنهم لم يزالوا منحرفين علىٰ أعقابهم منذ فارقتهم**»[5].

وفي رواية: «**إنهم بدلوا بعدك. فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي**»[6].

(١) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٤٩٠).

(٢) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٤٩١).

(٣) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٤٩٤).

(٤) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٤٩٥).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: في الحوض (٦٥٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: في الحوض (٦٥٨٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ (٤/ ١٧٩٥) ح (٢٩) (٢٢٩٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

* **قوله: «وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة، ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية، إلا بموافقة السنة».**

* **الشرح:**

ما قاله القيرواني -رحمه الله- هو قول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يكون بثلاثة أمور: عقيدة القلب، ونطق اللسان بما اعتقده القلب، وعمل الجوارح بما يقتضيه الإيمان، فلا يصح الإيمان إلا أن يكون هكذا.

وقد نعىٰ الله ﷻ علىٰ المنافقين وعابهم وتوعدهم بالعذاب الأليم، إذ كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فالله ﷻ يقول: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١].

وقد ذم الله المنافقين في سورة البقرة، وفي سورة الأحزاب، وأما سورة براءة فإنها تسمىٰ: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، وكشفت عما كانوا يكنونه، وكما أنه لا يكفي النطق باللسان مع عدم اعتقاد القلب فكذلك لا يكفي التصديق بالقلب ما لم يصدقه اللسان والعمل، فقد عاب الله فرعون وقومه بأنهم جحدوا برسالة موسىٰ كبرًا وتعاظمًا، مع أنهم استيقنوها بقلوبهم، فقال ﷻ عنهم: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]. إذن فلابد من توافق القلب واللسان والعمل.

فأما القلب فوظيفته الاعتقاد والتصديق، وأما اللسان فوظيفته النطق بما

يُطلب منه النطق به، وقد قال النبيﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبُه دخل الجنة**»[١].

فجعل استيقان القلب شرطًا في صحة النطق، كما أن النطق يجب أن يكون إعلانًا لما اعتقده القلب، كما سبق لنا أن الله ذم المنافقين بأنهم يقولون خلاف ما يعتقدون، فمن عرَّف الإيمان بأنه: التصديق كمرجئة الجهمية، فتعريفه باطل، ومن عرَّفه بأنه التصديق بالقلب والنطق باللسان.

وأخرج العمل كمرجئة الفقهاء فهو أيضًا تعريفه للإيمان غير صحيح، والمهم في الإيمان أن يتواطأ عليه القلب، واللسان، وعمل الجوارح بما تقتضيه تلك الشهادة -أي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله- فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فلابد أن يعمل بمقتضىٰ هذه الشهادة، فيقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج البيت، ويجتنب المحرمات من سفك الدماء المحرمة، وإزهاق الأرواح المحرمة، واستحلال الفروج المحرمة؛ فمن فعل ذلك فهو مسلم.

والمهم أن الإيمان هو ما يتواطأ عليه القلب واللسان، ولابد أن يكون في عمله هذا موافقًا للسنة فمن عمل بخلاف السنة، بأن ابتدع في الدين بدعًا، فإن عمله لا يقبل حتىٰ يكون خالصًا صوابًا؛ أي: خالصًا لله، صوابًا علىٰ ما شرعه الله علىٰ لسان نبيه ﷺ.

*** قوله: «وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة».**

*** الشرح:**

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد (١/ ٥٥) ح(٥٢)(٣١).

التكفير بالذنب هو طريقة الخوارج والمعتزلة، أما المرجئة فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، بعكس ما عليه الخوارج والمعتزلة، فالخوارج يكفرون بالكبيرة، ويحكمون علىٰ فاعلها بالتخليد في النار، والمعتزلة يوافقون الخوارج في أن صاحب الكبيرة يخلد في النار؛ ولكنهم يقولون: هو في الدنيا في منزلة بين المنزلتين -أي: لا مسلم ولا كافر-.

أما المرجئة فيقولون: إن الإيمان هو التصديق، وهو واحد لا يتفاوت، ولا يزيد، ولا ينقص، ويزعمون أن إيمان أفسق الناس هو كإيمان أبي بكر وعمر سواء، وهذا قول باطل، وقد صرح القرآن بزيادة الإيمان، فقال ﷻ: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ﴾ [المدثر:٣١].

وقال: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤].

وقال: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم:٧٦].

وفي حديث حنظلة حينما مر علىٰ أبي بكر ﵁ فقال: «يا أبا بكر نافق حنظلة، قال: وما ذاك. قال: نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه فيزداد إيماننا حتىٰ تكون الجنة والنار كأنهما رأيُ عين، فإذا رجعنا إلىٰ أهلينا فعافسنا النساء، وباشرنا الضَّيعات، ولاعبنا الأولاد نقص إيماننا.

قال أبو بكر: والله إنا لنجد ذلك، فانطلقا إلىٰ رسول الله ﷺ فقال حنظلة: نافق حنظلة يا رسول الله. قال: **وما ذاك**. قال: إنا نكون عندك فتصف لنا الجنة والنار حتىٰ كأنهما رأي عين، ثم نرجع إلىٰ أهلنا ... -الحديث-.

فقال النبي ﷺ: **لو أنكم تكونون علىٰ الحال التي تكونون عليها عندي دائمًا، لصافحتكم الملائكة في طرقكم، وعلىٰ فرشكم ولكن ساعة وساعة يا**

حنظلة»[١].

والمهم أن أهل السنة والجماعة لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بذنب؛ لأن الله قال في المتقاتلين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:١٠].

وقال -لما قال قائل لمن شرب الخمر-: «لعنه الله ما أكثر ما يؤتىٰ به. قال له النبي ﷺ: **لا تكونوا عونًا للشياطين علىٰ أخيكم**»[٢].

فسماه أخًا وقال ﷻ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:١٧٨]. فسمىٰ القاتِلَ أخًا للمقتول، فهذا يدل علىٰ أن المسلم لا يكفر بالذنب وإن كان كبيرة.

ومما يدل علىٰ تفاوت أهل الإيمان فيه أحاديث الشفاعة، وأحاديث الحوض، وأحاديث الصراط، إذ إن بعضهم يمر علىٰ الصراط كالبرق، وكلمح البصر، وكالريح، وكجري الخيل، وكسعي الرجال، ومنهم من يهرول، ومنهم من يمشي، ومنهم من يزحف علىٰ بطنه، ومنهم من يسقط في نار جهنم[٣].

هذا كله يدل علىٰ تفاوت الناس بالإيمان، وبالتفاوت بالإيمان تكون السرعة علىٰ الصراط، وعدمها، أو وضعفها، ويكون سقوط بعضهم في النار كل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب: فضل دوام الذكر.. (٤/ ٢١٠٦) ح(١٢)(٢٧٥٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر (٦٧٨١) عن أبي هريرة.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٧٤٣٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧) ح(٣٠٢)(١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ذلك دالٌّ علىٰ التفاوت.

وكذلك أحاديث الشفاعة، وهي أحاديث كثيرة منها: «**أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان،** -أو قال: **من خير**-، **أخرجوا من كان في قلبه مثقال نصف دينار من إيمان،** -أو قال: **من خير**-، **أخرجوا من كان في قلبه مثقال نواة من إيمان،** -أو قال: **من خير**-، **أخرجوا من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان،** -أو قال: **من خير**-، **أخرجوا من كان في قلبه مثقال برة من إيمان،** -أو قال: **من خير**-، **أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان،** -أو قال: **من خير**-»[1]. فهذا يدل علىٰ تفاوت أيضًا.

ومما يدل علىٰ تفاوت الإيمان: تفاوت المنازل في الجنة؛ وقد قال النبي ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أصحاب الغرف، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق الشرقي، أو الغربي،** فقال الصحابة -رضوان الله عليهم-: تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم. فقال النبي ﷺ: **بلىٰ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**»[2].

ومما يدل علىٰ ذاك أن هؤلاء الذين يخرجون من النار يخرجون وقد صاروا حُممًا إلا مواضع السجود منهم، فإذا وضعوا علىٰ نهر الحياة نبتوا عليه، كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم إنهم يختمون بخواتم في رقابهم يعرفون بها، أنهم قد

(١) هو الحديث السابق نفسه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف ... (٤/ ٢١٧٧) ح(١١)(٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

دخلوا النار، ويقال لهم الجهنميون، وهؤلاء يصيبون منازل متدنية بقدر ضعف أعمالهم، وضعف إيمانهم.

فهذه الأدلة كلها تدل علىٰ تفاوت الناس بالإيمان وأن أهله يتفاوتون فيه تفاوتًا عظيمًا، اللهم املأ قلوبنا إيمانًا بك، وتوكلاً عليك وإخلاصًا لك، ونصحًا لعبادك. وبالله التوفيق.

*** قوله: «وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلىٰ يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلىٰ يوم الدين».**

*** الشرح:**

هذا إخبار عن حال الناس في البرزخ، فأهل الشقاوة يعذبون، وأهل السعادة ينعمون، وقد دل علىٰ ذلك أحاديث كثيرة، ومنها حديث سمرة أن النبي ﷺ كان يقول للناس: «**من رأىٰ منكم رؤيا البارحة**، وأنه ذات يوم قال: **أتاني آتيان من ربي، فقالا لي: انطلق فانطلقنا فمررنا علىٰ رجل مضطجع، ورجلٌ قائم علىٰ رأسه بفهر، يثلغ رأسه به ثم يتدهده الحجر، فيذهب فيأخذه فلا يعود إلا وقد صح رأسه، فيثلغ به مرة أخرىٰ فقلت: ما هذا؟ فقالا لي: انطلق انطلق**، قال: **فمررنا علىٰ رجل مضطجع، ورجل يشرشر وجهه ومنخره، وشقه إلىٰ قفاه، ثم يعود إلىٰ الجانب الآخر فلا ينتهي إلىٰ الجانب الآخر إلا وقد صح الأول، فقلت: ما هذا؟ فقالا: انطلق انطلق**، قال: **فانطلقنا فإذا مثل التنور، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا يأتيهم لهبٌ من أسفل منهم، فإذا جاءهم اللهب ضَوْضَوْا** -يعني: صاحوا- ... إلىٰ آخر ما ذكر. وفي آخره أنهم قالوا له: **إن الرجل الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بفهر فيتدهده الحجر، فيأخذه، ثم يعود فيثلغ رأسه مرة أخرىٰ فذاك رجل آتاه الله**

القرآن فرفضه، وكان ينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي رأيته يشرشر وجهه فذاك رجل كان يخرج من بيته فيكذب الكذبة، يتحدث بها عنه في الآفاق.

وأما الذين رأيتهم في التنور رجال ونساء عراة فيأتيهم لهب من أسفل منهم فأولئك هم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي رأيته يسبح في نهر من دم فذاك آكل الربا» إلىٰ آخر ما ذكر من الحديث وهو في صحيح البخاري»[1].

ومما يدل علىٰ أن أهل البرزخ إن كانوا من أهل السعادة ينعمون، وإن كانوا من أهل الشقاوة يعذبون قول الله ﷻ عن فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]. والأخبار في ذلك موجودة في بطون الكتب دالة علىٰ ما ذكر، وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

*** قوله: «وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون».**

*** الشرح:**

كما قال ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ومن هذه الأدلة علىٰ ذلك: حديث البراء بن عازب الطويل قال: «توفي رجل فحضرنا، وحضر النبي ﷺ، ولما يلحد قال: فجلس النبي ﷺ، وجلسنا حوله فقال النبي ﷺ: **إذا كان العبد في إدبار من الدنيا، وإقبال علىٰ الآخرة، نزل عليه ملك الموت، فإن كان من أهل السعادة نزل ملائكة معهم حنوط من الجنة، وأكفان من الجنة، فجلسوا منه علىٰ مدِّ البصر، فيأتي ملك الموت فيجلس عند**

---

(١) في كتاب التعبير، باب: تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب.

رأسه، ويقول: أيتها الروح الطيبة اخرجي إلىٰ رَوْح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتنسلُّ روحه من جسده كما تنسلُّ القطرة من فيِّ السقاء، فإذا أخذها جاءت تلك الملائكة فأخذوها منه، ولم يدعوها في يده طرفة عين...» وذكر الحديث «وأنهم يعرجون بروحه، وأنه تنبعث من روحه ريح طيبة كأطيب ما كانت، وأنه إذا كان كافرًا أو منافقًا نزلت ملائكة سود الوجوه معهم مسوح من النار، وأكفان من النار...» وذكر الحديث.

وفيه: «أن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان. فقالا له: من ربك؟ ما دينك؟ من هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فأما المؤمن فيثبته الله، فإذا قالوا: من ربك؟ قال: ربي الله، فإذا قالوا: ما دينك؟ قال: ديني الإسلام. فإذا قالوا له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدىٰ، فآمنا به وصدقناه، فيفتح له باب إلىٰ الجنة، فيقال له: هذا مجلسك من الجنة إذ كنت مؤمنًا، ثم يفتحان له بابًا إلىٰ النار فيقولان: كان هذا مجلسك من النار لو كفرت، فيقول: دعاني أُبشر أهلي. فيقال له: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه.

وأما الكافر، أو المنافق فإنه إذا قيل له: من ربك؟ قال: ها ها لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فإذا قيل له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: ها ها لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بمطرقة لو ضُرب بها جبل لصار ترابًا فيصيح صيحة يسمعها كل من خلق الله إلا الجن والإنس»[1]

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود كتاب السنة، باب: في المسألة في القبر... (٥/ ٧٥) ح(٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (٢٠٢ =

).

* **قوله: «وأن علىٰ العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم».**

* **الشرح:**

الأدلة عَلَىٰ أنَّ مَعَنَا حفظة يكتبون أعمالنا قول الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وقول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٦-١٨].

وفي الحديث الصحيح: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ملائكة الليل، وملائكة النهار، فإذا صليت العصر عرج ملائكة النهار إلىٰ ربهم وبقيت ملائكة الليل، فيقول الله - وهو أعلم- للذين عرجوا: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون...**»[1].

* **قوله: «وأن خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي -رضي الله عنهم أجمعين-،**

=

).

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٥)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر.. ح(٢١٠)(٦٣٢).

وألاَّ يذكر أحدٌ من صحابة رسول الله ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يُلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب».

❋ الشرح:

ما قاله مؤلف العقيدة في هذا المقطع هو عقيدة أهل السنة والجماعة، يرون أفضل القرون القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ وآمنوا به، وصحبوه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لقوله ﷺ: «**خير القرون قرني**».

والقرون: اسم جنس، ووصفُ قرنه بالخيرية فيها دالٌّ علىٰ أن أهل قرنه هم أفضل القرون السابقة واللاحقة، المتقدمة والمتأخرة.

فقد اختار الله لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه- أفضل القرون، وبعثه فيهم لقوله ﷺ: «**أفضل القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك أقوام يحلفون ولا يستحلفون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن**»[1].

وقد ورد هذا الحديث بألفاظ قريبة من هذا، وهو صحيح، إذن فالخيرية جعلت لقرنه، ثم القرن الذي يليه، ثم القرن الذي يليه، ونحن نحمد الله ﷻ أن جعلنا من أهل دينه، وجعلنا ممن عرف الحق لأهله كما علمنا رسول الله ﷺ أن الإلهية لا تنبغي إلا لله الذي خلق فسوىٰ، وقدر فهدىٰ، وهذا هو التوحيد، وأن المتابعة لا تنبغي إلا لنبي الهدىٰ -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب: لا يشهد علىٰ شهادة جور إذا أُشهد (٢٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ... (٤/ ١٩٦٤) ح(٢١٤)(٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

وأن صحابته -رضوان الله عليهم- هم الذين مثلوا الدين الحق بأفعالهم وواقعهم تطبيقًا للشريعة التي تلقوها منه ﷺ، فلذلك ينبغي أن نكون علىٰ طريقتهم: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

فأصحابه هم المؤمنون، وتوحيد الله ﷻ بالعبادة ومتابعة الرسول ﷺ فيما شرع وعلم به أمته هو المفترض، وهو الذي يجب اتباعه، وقد قال -صلوات الله وسلامه عليه- في حديث الافتراق: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ: ثلاث وسبعين أمة كلها في النهار إلا واحدة**، ولما سئل عن الواحدة. قال: **هم الذين علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

وقال ﷺ: «**تركتم علىٰ بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»(٢).

أما أفضل الصحابة، فأفضلهم وأفضل الأمة علىٰ الإطلاق: أبو بكر ﵁، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي -رضي الله عنهم أجمعين-، ثم الستة الباقون من العشرة، ثم من هاجر الهجرتين، ثم أصحاب بدر، ثم أصحاب الحديبية الذين بايعوا تحت الشجرة، ثم من أسلم وقاتل قبل الفتح، ثم من أسلم وقاتل بعد

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه كتاب الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١)، وفي إسناده الإفريقي وهو ضعيف إلا أن الحديث له شواهد يصح بها، ولهذا صححه جمع من الحفاظ، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد).

انظر: مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٥).

(٢) مر تخريجه (ص٥٢).

الفتح، ثم صغار الصحابة، ثم خير الأمة العلماء الذين حملوا هذا الدين إلينا حملوه من الصحابة، وأتباع الأتباع حملوه من الأتباع وهكذا.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أنه لا يذكر أحد من الصحابة بسوء، وأن الواجب علىٰ المسلمين السكوت عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ ولهذا قال قائلهم:

وما جرىٰ بين الصحاب نسكتُ عنه وأجر الاجتهاد نثبتُ

* **قوله: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، وأتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم».**

* **الشرح:**

يقول المؤلف -رحمه الله-: «**والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم**». هذه عقيدة أهل السنة والجماعة؛ امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله، والله تعالىٰ أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر فقال -جل من قائل-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩].

فعطف الأمر بالطاعة في حق الرسول علىٰ حق الله، ثم قال: وأولي الأمر منكم، ولم يكرر الفعل؛ فدلَّ ذلك علىٰ أن طاعة ولاة الأمور داخلة في طاعة الله وطاعة رسوله، فهم يطاعون فيما أمر الله به ورسوله، إذا أمروا بأمر الله، ونهوا عما نهىٰ الله عنه، فإن أمروا بخلاف ذلك فلا طاعة لهم في المعصية.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(١).

وقال -صلوات الله وسلامه عليه-: «**إنما الطاعة في المعروف**»(٢). فحصر

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٠/ ٤٤)، وفي سنده ضعف إلا أن ما بعده يشهد له.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أخبار الآحاد، باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد (٧٢٥٧)، ومسلم =

الطاعة في المعروف، ومفهوم هذا أنهم إن أمروا بغير المعروف لم يُطاعوا فيه.

وقد وردت في السنة أحاديث كثيرة توجب بل تحتم طاعة ولاة الأمر علمًا بأن ولاة الأمر يفسر بولاة الأمر الذين هم أصحاب الولاية، ويفسر بالعلماء، وهؤلاء تجب طاعتهم كما قلنا، فولاة الأمر تجب طاعتهم فيما أمروا به مما يتعلق بالولاية ما لم يكن معصية لله.

والعلماء تجب طاعتهم فيما أفتوا به، وأخبروا به من أحكام الشرع؛ إذ إنهم العارفون بذلك، والعالمون به، والممارسون له، وقد قال ﷻ: ﴿ ۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

والله ﷻ يقول: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]. وذم أولئك النفر الذين كان معهم رجل في السرية، أصابته شجة فاحتلم، فقال لهم: هل تجدون لي رخصة أن أتيمم؟ قالوا: لا. فاغتسل فمات. وقد جاء في الحديث علىٰ فرض صحته أن النبيﷺ قال: «**قتلوه قتلهم الله، هلاَّ سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال...**»[(١)].

وفي هذه الآيات والأحاديث دليل علىٰ وجوب الرجوع إلىٰ أهل العلم في المسائل الدينية والأخذ بقولهم فيما أفتوا به.

=

في كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .. (٣/ ١٤٦٩) ح(٣٩)(١٨٤٠).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب: في المجروح يتيمم (١/ ١٧٢) ح(٣٣٦)، وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب: في المجروح تصيبه الجنابة ... ح(٥٧٢)، وحسنه الألباني في تمام المنة (ص ١٣١).

والأحاديث الدالة علىٰ وجوب طاعة ولاة الأمر في الصحيحين، وفي أحدهما، وفي السنن الأربع، ومسند أحمد، وغير ذلك، فمنها حديث أبي ذر ﷺ قال: «**أمرني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدًا حبشيًّا، كأن رأسه زبيبة**»(١).

ومنها: حديث عبادة بن الصامت قال: «دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه علىٰ السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلىٰ أثرة علينا، وألاَّ ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا معكم من الله فيه برهان»(٢).

ومنها: حديث ابن عباس ﷺ: «**من كره من أميره شيئًا فليصبر عليه فإنه من خرج من السلطان قيد شبر، فمات إلا مات ميتة جاهلية**»(٣).

ومنها: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: «**من أتاكم وأمركم جميع علىٰ رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق كلمتكم، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان**»(٤).

وفي هذا المعنىٰ حديث عرفجة الكلابي.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية**». الحديث رقم (١٨٤٨).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء ... (٣/ ١٤٦٧) ح(٣٦) (١٨٣٧)، ولفظه: «**إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدًا مجدَّع الأطراف**».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء ... (٣/ ١٤٧٠) ح(٤٢)(١٨٤١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورًا...**». ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين... (٣/ ١٤٧٧) ح(٥٥) (١٨٤٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (٣/ ١٤٨٠) ح(٦٠) (١٨٥٢)، من حديث عرفجة ﷺ، وقول الشيخ: من حديث أبي سعيد. لعله سبق لسان.

قلت: هو في صحيح مسلم، باب: إذا بويع لخليفتين بلفظ: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**». رقم الحديث (١٨٥٣). [النجمي].

وله حديث آخر بلفظ: «**ستكون خلفاء فتكثر**. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: **فوا ببيعة الأول فالأول**». الحديث رقم (١٨٤٢).

ومنها: حديث عبد الله بن عمر، أنه جاء إلىٰ عبد الله بن مطيع يوم الحرة، فقال عبد الله ضعوا للشيخ وسادة. فقال عبد الله بن عمر: إني لم آتِ لأجلس، وإنما أتيت لأخبرك أن النبي ﷺ قال: «**من فارق الجماعة لقي الله، ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[١].

وفي حديث عبد الله بن عمرو الطويل: «**من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر كائنًا من كان**»[٢].

ومنها: حديث عوف بن مالك الأشجعي: «**خيار أئمتكم الذين يحبونكم وتحبونهم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين يبغضونكم، وتبغضونهم، وتلعنونهم ويلعنونكم**. قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: **لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»[٣]. وحديث عن أم سلمة إلىٰ غير ذلك من الأحاديث، علمًا بأن هذه الأحاديث التي ذكرتها بعضها في الصحيحين، وبعضها في مسلم.

فهذه الأحاديث وأمثالها توجب علىٰ كل مسلم السمع والطاعة لولاة الأمور سواء كانوا مطيعين أو عصاة، بررة أو فجارًا، فلا يجوز الخروج عليهم، ولا يجوز منازعتهم؛ بل الواجب السمع والطاعة لهم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (٣/ ١٤٧٩) ح(٦٠) (١٨٥٢) من حديث عرفجة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين.. (٣/ ١٤٧٨) ح(٥٨) (١٨٥١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء.. (٣/ ١٤٧٢) ح(٤٦) (١٨٤٤).

ثم إن طاعتهم طاعة لله ﷻ، ولرسوله ﷺ؛ قال ﷺ: «**من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله**»(١).

وفي رواية: «**من أطاع الأمير**»(٢)، وهذه الرواية فائدتها أن هذه في الأمراء عامة، وليس ذلك خاصًّا بالأمير الذي يؤمره النبي ﷺ، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة؛ بل ورد في حديث حذيفة بن اليمان: «**اسمع وأطع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك**»(٣).

ومن قدح في هذه الزيادة، وأراد أن يتعلل بذلك للتوصل للخروج علىٰ ولاة الأمر، فإنه ضالٌّ مضلٌ؛ إذ إن هذه الزيادة إن ضعفت، فقد أفاد مفادها جميع الأحاديث التي سبق ذكرها؛ لذلك فإن هذه العقيدة هي عقيدة المسلمين، عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن زعم أن الإمام إن فسق أو عصىٰ يجوز الخروج عليه، فإن زعمه هذا باطل ترده هذه الأحاديث التي سبرناها، وهذا القول -قول من قال بجواز الخروج علىٰ الإمام الفاسق- قول ضعيف لبعض المخالفين للسنة -عفا الله عنا وعنهم-.

*** قوله: «واتِّباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم».**

*** الشرح:**

ما قاله -رحمه الله- واجب علىٰ المسلمين، فالله ﷻ قال في سورة الحشر:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: خيار طاعة الأمراء.. (٣/ ١٤٦٦) ح(٣٣)(١٨٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: خيار طاعة الأمراء .. (٣/ ١٤٦٦) ح(٣٤)(١٨٣٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين (٣/ ١٤٧٦) ح(٥٢) (١٨٤٧).

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فاتباع سبيل المؤمنين واجب علىٰ من بعدهم، والمؤمنون هم أصحاب رسول الله ومن كان بعدهم علىٰ عقيدتهم، وسار سيرهم، أما من أخذ غير سبيل المؤمنين فإنه قد اتَّخذ سبيلاً غريبًا وبعيدًا عما وضعه رسول الله ﷺ لأمته، وقد قال النبي ﷺ: «**تركتكم علىٰ بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»(١).

فأخبر أن الهلكة في الزوغان منها، أي: عن طريقته التي رسمها لأمته، وعاش عليها صحابته، ومن بعدهم من أهل العلم الذين حملوا شريعته ﷺ من كتاب وسنة، وفي حديث الافتراق قال النبي ﷺ: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاَّ واحدة**. قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: **هم الذين علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(٢).

وعن بعض السلف أنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»(٣).

وختم مؤلف هذه العقيدة كتابه، أو بالأحرىٰ عقيدته بهذه الجملة:

* «**وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون**».

* **الشرح**:

---

(١) مر تخريجه (ص٥٢).

(٢) مر تخريجه (ص٧٩).

(٣) ورد هذا عن ابن مسعود ﷺ، أخرجه الدارمي في باب: في كراهية أخذ الرأي (١/ ٦٩).

فالجدال منهي عنه وبالأخص الجدال في القرآن، والجدال في الآثار التي جاءت عن النبيﷺ، فما جاء في القرآن يجب أن نؤمن به ونتبعه، وما صح من السنة كذلك يجب أن نؤمن به ونتبعه، إذ هما المصدران اللذان قرر الله بهما شريعة عبده ونبيه محمدﷺ، فالقرآن هو أصل التشريع، والسنة مبيِّنة ومفسرة له، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤].

*** قوله: «وترك ما أحدثه المحدثون».**

أي: أن الواجب علىٰ كل طالب علم، بل علىٰ كل مسلم: أن يتبع الآثار الثابتة عن النبيﷺ وعن السلف الصالح التي ثبتت من أقوالهم وأفعالهم إذ إنهم مثلوا الشريعة، وترجموها ترجمةً واقعية، لذلك يَجبُ أن نترك المحدثات، وأن نتبع كتاب الله وسنة رسولهﷺ وعلىٰ فهم السلف الصالح، ونتبرأ من كل ما خالف ذلك.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأزواجه وذريته وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

وأقول رحم الله المؤلف لقد نصح وبلَّغ وعلَّم وبيَّن، وإن الواجب متابعته علىٰ ذلك؛ لأن ذلك هو الحق فيما نعتقده -وبالله تعالىٰ التوفيق-.

*****